

الرِّسَالَةُ القُرآنيَّة

والتفسير الحضاري للقرآن الكريم

تأليف

د. سيد دسوقي حسن

أستاذ ورئيس قسم هندسة الطيران
بكلية الهندسة جامعة القاهرة (سابقًا)



اسـم الكتـاب: الرسالة القرآنية والتفسير الحضارى للقرآن الكريم.

المـؤلـف: د. سيد دسوقى حسن.

إشـراف عـام: داليـا محمـد إبراهيـم.

تاريـخ النشـر: الطبعـة الأولى سبتمبر 2006م.

رقـم الإيـداع: 2006 / 16395

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-3556-6

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص. ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

مقدمة

هذه مجموعة جديدة من التأملات القرآنية رأيت أن أجمعها فى رسالة جديدة لتكمل رسالتين سبق نشرهما من قبل فى سلسلة التنوير الإسلامى تحت عنوانين:

- تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم.
- نظرات حضارية فى القصص القرآنى.

وكلتا الرسالتين من دار نهضة مصر.

وفى الرسالة الأولى (تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم) مقدمتان بين يدى هذا النوع من التفسير: مقدمة لأستاذنا المستشار طارق البشرى ومقدمة للمؤلف، حيث يجد القارئ فى هاتين المقدمتين شرحًا مسهبًا للمنهج الذى تبنيته فى النظر لآيات القرآن الكريم بما يعين القارئ على استقبال هذا الكتاب، وأنصح القارئ أن يعود إليهما.

وأدعو الله أن أكون قد هُدِيت صراطًا مستقيمًا

د. سيد دسوقى حسن

١٦ سبتمبر ٢٠٠٤

الفصل الأول
تأملات فى سورة الفجر

فى الأدب العربى تستخدم الليل والفجر والضحى والغروب والشروق بمعانيها الزمانية، وكذلك تستعار لمعانٍ جمالية وأدبية؛ فالليل مثلا يستخدم بمعناه الزمنى كما يستخدم بمعنى العسر والتوتر والمحن والابتلاءات وما يحيط بالإنسان فى حياته من كدح، وذلك فى مقابل الفجر والضحى وما يمثله ذلك من يسر، وهى ساعات قليلة فى حياة الإنسان، والله يقول: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١، ٢] أى: امتد وسكن، انظر إلى هذا الليل الساجى فوق حياة الإنسان فى مقابل الضحى الذى يمر سريعًا، واقرأ أيضًا: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦] أى وسبحه ليلاً طويلاً ساجيًا كليل يونس - عليه السلام - فى بطن الحوت، فكن كيونس من المسبحين.

تذكرت هذه المعانى وأنا أتدبر سورة الفجر؛ فوقع فى قلبى تأويل جديد، يستخرج كنوزا هامة تعين المؤمن فى سيره فى الحياة..

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا

الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَن (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَن (١٦) كَلاَّ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِى فِى عِبَادِى (٢٩) وَادْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ١ - ٣٠].

الفجر الذى تسطع فيه المكاسب الإيمانية فى الدنيا والآخرة يقابله عشر ليال كاملة، بعضها يتعلق بالفرد وحده، وبعضها يتعلق بالفرد والجماعة؛ أى أن بعضها وتر وبعضها شفع. أما كيف تستطيع الرسالات الإلهية أن تبدد هذا الليل فيسرى مؤذنا بفجر فذلك من الأمور التى يقسم بها الله تعالى موجهًا خلقه إلى التدبر والتفكر فى الوسائل التى تحقق هذا الإنجاز، وتبدل الدنيا من حال إلى حال.

وهذه هى الليالى العشر:

- الليلة الأولى: ليلة عاد:

﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ﴾. أى أن عادًا هذه كان لها السبق فى وقتها؛ فهى تملك العماد فى كل فروع الحياة. لقد كانت هى أمريكا الوقت فى زمانها، والله تبارك

وتعالى يخاطب عادًا هذه فيقول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠]؛ أى أنهم فقدوا الرسالة الإنسانية فى كل عمل يعملونه؛ فهم يبنون فى كل ريع آية؛ أى فى كل توجه متميز فى الحياة. والريع: المكان العالى الذى يميز المكان عما حوله، ولكن هذا البناء لا يتوجه إلى الخير الإنسانى، وإنما هو العبث فى الحياة؛ فهم مثل هؤلاء الذين فى زماننا، يبنون سلاحا ذريا لا لينفعوا العباد، وإنما ليهلكوا به الحرث والنسل، أو يبنون جهازًا إعلاميًّا جبارًا يعبثون به فى عقول الناس وأفئدتهم، وهم فى كل ما يصنعون لا يرجون إلا طول الأمل أو الخلود، منكرين البعث والحساب.

كل حساباتهم فى الحياة تقوم على شهواتهم وأهوائهم، ثم إنهم وقد افتقدوا أى رسالة إنسانية تربطهم بخالق هذا الوجود امتلأت قلوبهم بالغلظة؛ فهم يبطشون بجبروت إجرامى بلا رحمة ولا رأفة.. تمامًا كالذى نراه اليوم فى قوى الاستكبار العالمى.. مكر فى كل اتجاه، وتفرد بالقوة فى كل اتجاه، وعبث وبطش فى كل اتجاه، حضارات تفتقد لرسالات السماء. مثل هذه الحضارات تطيل فترات الليل فى حياة البشرية، ولن يسرىَ ليلها إلا برسالة إنسانية، يحملها نفر مؤمنون، فيجعلون لكل سعى فى الحياة غاية ربانية وهدفًا قاصدًا وجه الله.. ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ

عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٠ - ٦٠].

- الليلة الثانية: ليلة ثمود:

و«ثمود» كذبت رسالات ربها.. فكيف كان تكذيبها؟ يقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾؛ أى أن تكذيبها وكفرها كان عن طريق الطغيان، والطغيان ألوان وأنواع، وطغيان ثمود كان طغيانًا تنمويًّا، والطغيان يبعث الأشقياء فينبعثون ويلتفون حول الطاغية، ويبعد الشرفاء الأتقياء؛ والقضية التنموية هنا كانت تتعلق بثروة حيوانية تمثلت فى ناقة صالح، والناقة هنا تمثل وسيلة للنقل ومصدرًا للألبان ومصدرًا للصوف ومصدرًا للسماد وآلة حرب وحرث وسُقيًا.

إذا بلغت من العمر مبلغًا كانت مصدرًا للحم، ولكن ثمود لا تريد أن تصبر على الناقة لتقوم بمهامها التنموية، تريد أن تذبحها الآن، ويقول لهم نبيهم صالح: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٧] كأنه يقول لهم: خططوا نظامكم التنموى،آخذين فى الاعتبار التخطيط للآجل؛ فلا تسرفوا فى العاجل على حساب الآجل، اجعلوا للآجل شربًا وللعاجل شربًا، ولا تتبعوا طريق المسرفين.

وكل أمة تترك أمر تنميتها لنظام طاغوتى سوف تسلك طريق ثمود فى الهلاك المبين. فأمة تهمل أرضها الزراعية، وتبنى عليها قصور الفارهين أمة ثمودية، وأمة تهمل ثرواتها الركازية وتنفقها على بطونها وشهواتها أمة ثمودية، وأمة تهمل ثروتها البشرية، وتحولها إلى طاقة استهلاكية أمة ثمودية، وأمة يتحول فيها صانعو القرار إلى سماسرة وتجار يبيعون ثروات أمتهم لكل الأمم هى أمة ثمودية.

- الليلة الثالثة: فرعون وملؤه:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

قصة فرعون نموذج للطغيان والاستكبار السياسى، كثيرة التكرار فى حياة الجماعات والشعوب. أصحاب النفوذ الطغاة يسعون لتقسيم الأمة إلى شيع ضعيفة، وبالطبع يسهم الناس فى تسهيل

مهمة الملأ الإجرامى بثقافاتهم المرضية، وعلاقاتهم المضطربة. فلفظ «جعل» فى الآية تعنى إرادة فرعونية وقابلية للتشيع والتحزب عند الناس، وكلما زادت القابلية عند الناس زاد العلو الفرعونى. فإذا حدث ذلك سهلت مهمة الفرعون فى البطش والقهر لمن يشاء.

فكل طائفة لا يهمها قهر جارتها، وتبحث عن النجاة بنفسها، ويئول الأمر فى النهاية إلى أن يضربوا جميعا ويقهروا جميعا. وفرعون فى مكره هو وملئه، يستخدم السحر فى إضلال الناس، كما تفعل آلة الإعلام الجبارة هذه الأيام؛ حيث تسحر أعين الناس وأفئدتهم؛ فيحسبون الضلالة هدًى، ويظنون الهدى ضلالا، وتقلبهم آلة الإعلام الساحرة ذات اليمين وذات الشمال، آناء الليل وأطراف النهار، وفرعون وملؤه يضيقون ويُضيِّقون على كل المحاولات الإصلاحية، ويستنفرون الأمة ضدها بسحرهم.

وقصة فرعون وملئه من أسود الليالى فى تاريخ الناس، وهى قصة متكررة جدًّا؛ ولذلك كان التركيز القرآنى عليها كمثال لما ينبغى أن ينتبه إليه الناس، وينظروا كيف يمكن أن نمنع تكوّن الملأ الفرعونى وكيف يمكن أن تسود ثقافة بنائية بين الناس تجعلهم محصنين ضد التفرقة شيعًا وأحزابًا، والشيع والأحزاب لا يعنيان اختفاء الجماعات المتمايزة عرقيًّا أو عقديًّا أو مهنيًّا أو اجتماعيًّا. ففى رأيى أن هذه التمايزات ستبقى وقودًا للخير والتنافس الشريف، والمطلوب ليس إلغاءها، وإنما المطلوب أن تتكامل الجهود، وتلتقى القلوب على الكلمة السواء التى نتفق عليها جميعًا، ونقطع الطريق على فرعونية فرعون وملئه.

- الليلة الرابعة: الابتلاء بالنعم:

﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ...﴾

فالإنسان الذى يظن أنه فى نعمة وخير نتيجة استحقاقه لهذه النعمة لا يدرى أنه فى ليل مظلم بهيم، ولا يدرى أن هذه النعم هى ابتلاء من **الله** تعالى؛ ليمتحنه ويراه ماذا هو فاعل بها، أيستخدمها فى مرضاة **الله** أم فى سخطه؟ أينفقها فى سبيل **الله** أم يكنزها على قلبه؟ أيتخفف منها بالعطاء أم يحبُّها قناطير مقنطرة؟ إن الشعور بالاستحقاق يحيل حياة المرء إلى جحيم، ويحول بينه وبين العطاء المتجدد.

أنا أقارن دائمًا بين بعض الأساتذة فى الجامعة الذين يرون أن هذه الجامعة وهذا الوطن أعطاهم فأغدق، وأنهم مدينون له بالعطاء المتجدد، وأولئك الذين يشعرون أن ما وصلوا إليه من علم ومكانة هو استحقاق لهم، وعلى الوطن والجامعة أن تدفع لهم مزيدًا حتى يبذلوا، وإلا فإنهم تاركو الجامعة إلى غيرها فى الخارج؛ ليأخذوا ما يستحقونه. أقارن بين الصنفين، وأرى أن الشيطان يزين للصنف الثانى، ويضخم شعور الاستحقاق للعطاء، وقارون مثل تاريخى لهذا المرض النفسى العضال.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ

الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦ – ٧٨] هذا هو مكمن الداء.. الشعور بالاستحقاق، وليس الشعور بالابتلاء.. هذا الشعور الذى يؤدى فى النهاية إلى الخسف والهلاك.

- الليلة الخامسة: الابتلاء بالمنع:

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ﴾.

عندما أسترجع حياتى التى مضت أحمد الله أن ضيّق على الرزق فى فترات لو وسّع على فيها لكنت من الهالكين؛ فالابتلاء بالتضييق يكون أحيانا للتربية والتدريب حتى يصمد الإنسان فى مواقف تزلّ فيها الأقدم.

والرزق ليس المال وحده. والعاقل من نظر فى الرزق كله: المال والعافية والدين، والراحة النفسية والأهل والمجتمع، والمناخ والبيئة والرابطة الأسرية والاجتماعية، والقدرة على العمل، وتوافر العمل –عظم أو صغر– ينظر فى هذا كله ويحمد الله على ما أعطاه.

وداء الإنسان العضال أن ينظر إلى جزئية بعينها؛ فيرى نفسه مهانًا فيها بالتطلع إلى غيره، بينما لا ينظر إلى الأمر كله: لنفسه ولغيره. والقرآن يقول: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

والساخطون على حياتهم، الشاعرون دائما أنهم مهانون من قبل ربهم، المتطلعون دائما إلى ما فى أيدى غيرهم، أو بتعبير القرآن «الآبقون» إلى الفلك المشحون - المشحون بما ليس عندهم - هؤلاء جميعًا فى ليلة ليلاء، وجحيم بيّن.

- الليلة السادسة: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾:

واليتيم هو وصف لكل من فقد عائل الأسرة الراعية فى عمر هو فى أمس الحاجة فيه إلى هذه الرعاية؛ ولذلك فإن من إكرام اليتيم أن يسعى المجتمع إلى حماية الأسرة من التفكك حتى ترعى أولادها؛ ولذلك فإن الإسلام يحرص أشد الحرص على منظومة الأسرة، سواء كانت صغيرة أو ممتدة، ويفعل ذلك بصيانة الأخلاق، وبالتشريع المحكم للزواج والطلاق والميراث؛ أى أن إكرام اليتيم ينبغى أن يكون منظومة متكاملة، تبدأ بإعداد الآباء والأمهات، وانتهاءً بالرعاية المادية لهم ولذويهم.

والمجتمعات التى لا تكرم اليتيم هى المجتمعات التى لا تكرم نظام الأسرة؛ فيكثر فيها الفسق، وأولاد العلاقات المحرمة ممن لا يعرفون آباءهم، وينشأ هؤلاء بعيدًا عن أحضان الأسرة؛ فيحرمون حتى من أسباب الدفء الحيوانى الذى تشعر به الحيوانات من أمهاتها.

إن إكرام اليتيم عمل فردى وعمل جماعى، فكل إنسان يكرم اليتامى فى محيط أسرته وإمكاناته، وكل مجتمع ينبغى أن ينشئ المؤسسات القادرة على حماية الأسرة، ومن ثم حماية

اليتامى،من خلال نظام أخلاقى ونظام تشريعى ونظام مؤسسى. وكل مجتمع يهمل فى الحفاظ على منظومة الزواج المنشئ لمنظومة الأسرة هو مجتمع يقهر اليتامى، حتى لو تغنى بحقوق الطفل.

إن أعظم إنسان خلقه الله على وجه الأرض هو سيدنا محمد ﷺ، نشأ يتيمًا، ولكن الله تبارك وتعالى آواه أسريًا فى ظلال أهله الطيبين، وآواه اجتماعيًا فى مجتمع قوى قائد وظل يؤويه ويرعاه حتى اصطفاه للرسالة الخاتمة، هذه الرسالة التى تجعل التكذيب بالدين هو المظهر لعملية «دع» اليتيم ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣] فكل إنسان يدعّ اليتيم ولا يكرمه، وكل مجتمع يدع اليتيم ولا يكرمه هو مجتمع يعيش فى ظلمة الليل البهيم.

- الليلة السابعة: ﴿وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾:

من المسكين؟.. قيل: المسكين من له مال أو كسب لا يكفيه، وذلك فى مقابل الفقير الذى لا مال له ولا كسب يقع موقعًا من حاجته. وأصل الفقير: المكسورُ فِقار الظهر، أو هو من الفُقرة أى الحفرة، ثم استعمل فيما ذكر؛ لانكساره بعُدْمه وحاجته، وكونه أدنى حالاً من أكثر الناس. كما أن الحفرة أدنى من سطح الأرض المستوية.

والمسكين مأخوذ من السكون ضد الحركة. وهناك نوعان من السكون: سكون يقعد صاحبه عن العمل، وسكون لا يقعد صاحبه عن العمل، إذا توفر هذا العمل.

السكون الأول الذى يقعد صاحبه عن العمل يدخل صاحبه فى دائرة الفقراء إذا صاحب هذا السكون غياب أى إمكانات حياتية.

أما السكون الثانى الذى تصاحبه قدرة على العمل ولكن الأعمال غائبة، فربما هذا ما يعنيه الاستخدام القرآنى لكلمة مسكين. ولعل التمييز القرآنى بين كلمتى الفقراء والمساكين كان للتركيز على طريق العلاج لحالة الفقراء والمساكين؛ فالفقراء بهذا التعريف يُمنحون الصدقات من أجل توفير مستلزمات حياتهم الأساسية. أما المساكين فيمنحون الصدقات من أجل إيجاد أعمال لهم.

ونحن نتوجه بصدقاتنا دائمًا للصنف الأول: الفقراء، صدقات مباشرة. ولكن الناس لا تنتبه إلى الخطورة البالغة فى أن تتوجه بالصدقات الاستهلاكية لقوم قادرين على العمل. إن هذا يزيد البطالة فى بلادنا، ويحولنا جميعًا إلى عاطلين؛ ولذلك لا بد أن تنشأ فى بلادنا مؤسسات للحض على إطعام المساكين القادرين على العمل، من خلال توفير أعمال لهم وتدريبهم عليها.

وفى كثير من مجتمعاتنا الإسلامية اليوم تتوجه الجهود لإطعام الفقراء، ولكننا لا نكاد نرى مؤسسة - إلا قليلاً - تعمل فى الحض على إنشاء منظومات أعمال جديدة؛ ليندفع إليها مساكين الأمة؛ فيصلحوا حالهم ويصلحوا حال أمتهم.

- **الليلة الثامنة:** ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا﴾:

يتحدث كثير من المفسرين عن التراث فيحصرونه فى المال الموروث عن الآباء، وكيف يظلم الناس بعضهم بعضا عند قسمته، فيظلم الرجال الأقوياء النساء والأطفال وينهبون أموالهم ويلتهمون حقوقهم، كل ذلك رغم الوضوح التشريعى والتحذير الأخلاقى، ولكن كثيرًا من الخلطاء يبغى بعضهم على بعض بتعبير القرآن الكريم.

ولكننى أظن أن التراث أشمل من ذلك، وأظنه كل ما ورثه جيل عن جيل، سواء كان مالاط يورثه الآباء للأبناء، أو تمدينًا يورثه جيل إلى جيل، أو ركازًا تحت الأرض يورثه الله للناس أجيالاً متعاقبة، أو نظامًا حياتيًا أبدعته أجيال سابقة، كل هذا يمكن أن نعتبره تراثًا ينبغى أن نتعامل معه بإحسان ولا نأكله أكلاً لمًّا، فالأكل اللم هو كناية عن التعامل الظالم والمستهتر والأحمق مع التراث، والله – سبحانه – يقول: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وكذلك يقول: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

فى تفسير آية الأعراف يقول الشيخ مخلوف: فخلف من بعدهم خلف؛ أى فجاء من بعد هؤلاء الذين فيهم الصالح وغير الصالح

خلف لا خير فيهم، والخلف: القرن يجىء بعد القرن، وهو بسكون اللام شائع فيمن يخلف بالسوء، وبفتحها فيمن يخلف بالخير، والعرض: متاع الدنيا وحطامها، والأدنى: الأقرب، والمراد به الدنيا، وهى من الدنو للقرب بالنسبة للآخرة؛ أى أنهم يأخذون عوضًا عن قول الحق متاع هذه الحياة الدنيا، وهو الرشوة فى الأحكام والرشوة على التحريف، أى أن ميراث النبوة يتعامل معه الورثة بالتحريف والتزييف يبغون بذلك عرض الحياة الدنيا، وهذه مصيبة الناس فى التعامل مع التراث، سواء كان مالاً أو نظامًا أو فكرًا أو عقائد.. يأكلونه أكلاً لمًّا؛ أى يحرفونه ويبدلونه ويفسرونه ابتغاء متاع الحياة الدنيا الزائل، ولم تسلم الأمم السابقة من ذلك، ولم تسلم أمة الإسلام من ذلك وما تزال.

- الليلة التاسعة: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾:

السؤال: ما حاجيات الإنسان الأساسية والتكميلية والتحسينية؟

الإجابة تعتمد على المكان والوقت، ولكن الإنسان مطالب بأن يسعى فى الحياة، لتوفير احتياجاته الأساسية من طعام وشراب وملبس ومسكن ونفقات لتعليم أولاده، وذلك فى حدود معقولة من الزيادة والنقصان.

وكل زيادة فوق ذلك يسميها القرآن «العفو» فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ويضع الفقهاء شرطًا زائدًا فى تعريف العفو فيقولون العفو هو ما زاد عن الحاجة وارتضته النفس، فهناك من يقف عند الحاجة الأساسية

وينفق ما فوقها، وهناك من يتوسع فى الحاجة توسعًا كبيرًا ثم ينفق ما زاد عنها.. فما المقياس فى تعريف الحاجة؟

المقياس هو اختيار المواقع فى الآخرة، فهناك من يستهدف الفردوس الأعلى كما كان حال سيدنا رسول الله ﷺ الذى كان يدعو ربه أن يجعل رزق آل محمد كفافًا، فإذا بقى شىء بعد وفاته فإنه يأمر أصحابه أن يردوه إلى بيت المال، ويقول «نحن معشر الأنبياء لا نورث، وما تركناه فهو صدقة»، وهناك درجات دون ذلك، والأمر كله متروك للاختيار البشرى،فالله يدعونا إلى الجنة، والشيطان يدعونا إلى النار.

فلماذا لا يطمئن الإنسان فى الحياة وعنده رزق أيام كثيرة فى المستقبل؟

بعض الصالحين عنده رزق يومه وهو مطمئن به، فما بال بعض الناس يملكون رزقهم ورزق أحفادهم وما يزالون غير مطمئنين فى حياتهم كأن فى بطونهم سُعارًا إلى المال حلاله وحرامه؟

إن الموقف من المال يفضح إيمان الرجال ويعبر عنه تعبيرًا مبينًا، والقرآن عبر عن هذه المعانى فى هذه الآية الجامعة ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾: أى حبًّا كثيرًا مع حرص وشره، يقال «جم» الماء فى الحوض إذا كثر واجتمع، ومنه الجموم للبئر الكثيرة الماء، فمن الذى يشرب بئرًا وحده؟!

ألا يكفيه فى اليوم دلو أو دلوان؟.. أليست البئر للقبيلة كلها ولو استأثر كل امرئ ببئر ماء فمن لنا بمليارات الآبار؟

وماذا لو أنفق الإنسان ما زاد عن حاجته مع تعريف معقول للحاجة؟! أليس الحب الجم للمال هو أصلاً من أصول الفساد فى الأرض، وسببًا من أسباب الحروب على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب؟

- الليلة العاشرة: الليلة الأخيرة:

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾.

هذه الليلة الليلاء لا يعرف أسرارها إلا خالقها، ولكنها ليلة خانقة يتذكر فيها الإنسان كل عمله فى الحياة.. يتذكر الهمسة واللمسة، يتذكر خائنة الأعين وما تخفى الصدور.. يتذكر ما غفل عنه الناس وما عرفوا.. يتذكر كل شيء ويقول عندما يظن أنه هالك: يا ليتنى قدمت لحياتى.. ليلة ليلاء وترية.. فكلنا آتيه يوم القيامة فردًا.. لا صحابة ولا صاحب.. ولا أبناء ولا آباء ولا أمًّا، الكل مذهول مذهول، فأى عذاب ينتظر المجرمين؟!، وأى وثاق يوثقون به؟! يوم مهول.. نجانا الله منه إلى جنته.

القسم: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾.

لقد استعرضنا الليالى العشر التى تحيط بالإنسان، فى حياته الفردية وحياته الاجتماعية وحياته السياسية والاقتصادية،

وفيهن تسع ليال كان فيها مختارًا، ثم تحيط به الليلة الأخيرة لا يملك فيها إلا الندم... ورأينا أهمية النظر فى طبائع هذه الليالى حتى يقدر الإنسان أن ينجح فى امتحاناتها وابتلاءاتها، وحتى يسرى ليلها ويمضى بعيدًا مؤذنًا بفجر ينعم فيه الإنسان بالرضاء والقبول من الله تعالى.. وكأن الله يوجهنا إلى التدبر فى طبائع تلك الليالى والعمل على إعداد النفس والمجتمع لتجاوزها، وهو قسم يتوجه به الله إلى كل ذى حجر؛ أى إلى العقول والقلوب التى تستطيع أن تفهم وتتدبر فى الحركة الإنسانية وتحيط بها خبرًا فتحجر على سفاهتها وتطلق العنان لكل قوى الخير الكامنة فيها.

الفجر الأخير:

وكما ابتدأت السورة بفجر انتهت بفجر.

فالإنسان يولد على الفطرة وهذا فجر حياته، ويمر فى الحياة ويتقلب فيها، فإذا عاش بدين الفطرة المطمئنة إلى ربها الواثقة فيه فإن الله يبدلها بليالى الدنيا الخشنة فجرًا جديدًا يوم القيامة.

فالله تعالى يقسم أن كل ليل سوف يسرى وكل عسر سوف يمضى شريطة أمرين:

الأمر الأول: الاطمئنان إلى جانب الله والثقة به وجودًا وقدرة وحكمة وعلمًا وشرعًا.

الأمر الآخر: الرجوع إلى الله فى كل شأن من شئون الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٨]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى

﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وانظر إلى هذا النداء الجميل ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أى ارجعى أيتها النفس غير ساخطة ولا متبرمة، ولكن ارجعى فى حب وبهجة وحبور راضية بالقرب منه ساعية إليه.. ذلك حتى تنالى رضا ربك، وتدخلى فى عباده فى الدنيا، وتدخلى مع عباده جنته فى الآخرة.

اللهم اجعلنا من عبادك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الثانى
منطق الطير وتأويب الجبال

نقرأ فى كتاب الله تعالى دروسًا راسخة تُعلِّمنا المنهج القويم فى التعامل مع الكون المحيط، دروسًا تحتاجها الحضارة المعاصرة أشد الحاجة ؛ بعد أن ظهر الفساد فى البر والبحر نتيجة الحمق المركب فى التعامل مع كوكب الأرض وسمائه القريبة.

قول الله – تبارك وتعالى – فى سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ

السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ١٦ - ٢٦].

الدرس الأول: هو في قول سليمان ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ ولم يقل: «لغة الطير». والمنطق هو برنامج تفاعلي بين الكائن والبيئة؛ منه اللغة ومنه السلوك ومنه الغرائز ومنه العقائد.

في الإنسان والجن هناك جزء إجباري في سلوكه، وكذلك جزء اختياري.أما في الكائنات الأخرى؛ طيرها وجمادها وحيوانها وحشراتها وملائكة رب العالمين، فالمنطق كله جِبلَّةٌ أودعها الله فيهم لا يملكون منها فِكاكًا. وفي قصة سليمان نركز على درسين: درس النملة ودرس الهدهد.

سليمان يسمع صراخ النملة القائدة وهي تنذر قومها أن يدخلوا جحورهم. والآية تقول إن سليمان وجيشه أتوا على وادي النمل، وأن النمل لم يأت إلى أودية الناس. وسليمان يفهم منطق النملة ويتعامل معها بحب ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾.

لي أن ألخص الموقف الإسلامي من هذا الكون المحيط في أن يتعامل الإنسان مع مفردات البيئة من حوله بفهم وحب وتسخير. أي أن الغاية هي التسخير لهذه الكائنات المحيطة لإعمار الدنيا من حولنا، ونحن لا نسخرها بالقهر والغباء وإنما نسخرها بالفهم والحب. وهذا الفهم قد آتاه الله سليمان منحة من لدنه، والبشرية تحتاج للبحث والتنقيب عن طبيعة منطق هذه المخلوقات حتى

تصل لفهمها، وحتى تستطيع تسخيرها بطريقة لا تؤذيها ولا تفسد التوازن البيئى وتهلك الحرث والنسل.

إن ما اخترعه الإنسان من أدوات الدمار البيئى - فى هذا القرن - فى الزراعة والصناعة والطب والدواء هو فى حقيقته إعلان عن الغباء البشرى فى التعامل مع الكون المحيط. إن فى الأسواق أدوية لو قرأت النشرة المصاحبة لها عن الأعراض الجانبية لها لقلت إن الموت أهون من هذا الدواء. قرأت مرة فى مجلة أمريكية «إنه لولا النمل لتعفن سطح الأرض ولما قامت على الأرض حياة».

ماذا لو توجهت تسعون فى المائة من الثروة الموجهة للبحوث لعملية فهم الكائنات من حولنا، والتى نؤمن أن الله لم يخلقها عبثًا، وإنما خلقها ليسخرها الإنسان بفهم وحب لإعمار الكون المحيط. كم سيكون العائد من الخيرات على الإنسانية جمعاء؟ فى العالم الآن آلاف من الأجهزة السرية تعمل فى ميدان المخابرات تنفق معظم أموال الفقراء على عمليات تجسس فى السياسة والاجتماع والاقتصاد.

وانظر كيف مَنَّ الله على سليمان بفهم منطق هذا الطائر «الهدهد»، ثم استخدمه بعد ذلك كجندى فى جهاز استخباراته. انظر إلى هذا التقرير الشامل الذى رفعه الجندى إلى القائد يصف الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمملكة سبأ:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾... تملكهم.. لفظة واحدة أظهرت طبيعة الحكم.. إنها لا تحكمهم فحسب، وإنما تملكهم.. بالطبع

عندها مَلأٌ حاكم تستشيره، ولكنها وملأها الحاكم تملك مقدرات الأمة، تمامًا كما يحدث فى كثير من البلدان هذه الأيام.. حاكم وملأ الحاكم يملكون الأمة.. الملأ يزين للناس عبقرية الحاكم، والحاكم يضمن للملأ المحيط به البقاء فى معادلة سخيفة أرهقت شعوب المستضعفين، ثم يمضى تقرير الهدهد وقد فرغ من وصف الحالة السياسية ليصف الحالة الاقتصادية: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. ثم يمضى التقرير ليصف الحالة العقيدية: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.. سألنى شاب مسلم فى أعقاب خطبة جمعة فى إحدى الولايات الأمريكية: هل هناك على وجه الأرض من يسجد للشمس من دون الله؟ قلت: أنت ومجتمعك وكل من ينسى القيم الدينية ويجعل همه فى الحياة هو التكاثر المادى. والهدهد، جندى الاستخبارات الذكى، يصف هذا التوجه المادى وصفًا محكمًا.. السجود للشمس.. وما الشمس؟... أليست هى مصدر الحياة المادية فى كوكبنا؟.. وصاحبنا الهدهد يصفهم بأنهم يسجدون لها من دون الله ؛ أى أنهم لم يلتفتوا إلى أى قيمة تأتيهم وحيًا ولا أى شريعة تنبثق من هذه القيم والأوامر الوحيية.

والسجود هو الانصياع الكامل والتوجه بالجسم والروح إلى عالم المادة، ثم يكمل الهدهد تقريره بملاحظات اجتماعية: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾: أى أنهم ماضون فى طريقهم الذى زينه الشيطان لهم من غير أى

شعور بالإثم أو إدراك للخطأ، وبالطبع الشعور بالإثم وإدراك الخطأ هو أول خطوة فى طريق الاهتداء، ولكنهم فقدوا هذا الشعور وهذا الإدراك، ومن ثم فهم لا يهتدون.

بربك - أيها الأخ القارئ - هل فى الدنيا هذه الأيام ضابط مخابرات يملك كل هذه العبقرية والأمانة فى وصف أحوال المجتمعات؟ إن معظم هذه التقارير يعتريها الهوى ويكتنفها الضلال، وعادة ما تكون أول المعاول التى تضرب فى استقرار المجتمعات، و رغم ذلك فإن سليمان الملك النبى يقول للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. أما معظم حكام هذه الأيام فيقيمون كل قراراتهم بناء على هذه التقارير التى تأتيهم وقد اعتراها الهوى واكتنفها الضلال.

ونختتم هذه الخواطر حول الإنسان والبيئة فى التصور الإسلامى بهذه الموسيقى العذبة تسمعها وأنت تقرأ قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] فتشعر بهذا التناغم البيئى بين الإنسان والكون المحيط به، وتحيط بك روحية تعلو بك فى الآفاق محلقة... أنت أيها الشادى على قمم الجبال... تترنم بأنشودات تسبح بها ربك... معك الجبال تشدو مسبحة بحمد ربها... لست وحدك...كل من حولك يشدو معك. إن شدوك أيها الرجل الصالح يلين الحديد.. الحديد الذى فى الجبال والحديد الذى فى القلوب.. والحديد الذى فى العقول.. الكل فى قافلة الخلق يسبح ويكبر.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾...

الفصل الثالث
فتنةُ المُلْكِ الجَسَدُ

هل نحن أمة هجرت كتاب ربها واستبدلت بكثيرٍ من آياته إسرائيليات تحولنا عنه تحويلاً؟

اقرأ معى هذه الآيات البينات من كتاب الله المعجز: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٣ – ٣٩].

واقرأ معى ما نقله الشيخ مخلوف فى صفوة البيان عن كثير من المفسرين:

«ولقد فتنا سليمان؛ أى ابتليناه واختبرناه. وسبب ذلك على ما فى الصحيحين أنه حلف ليطوفن على نسائه الليلة، لتلد كل واحدة فارسًا يجاهد فى سبيل الله، فقيل له: قل: إن شاء الله. فنسى ولم يقل. فطاف عليهن جميعًا فلم تحمل منهن إلا واحدة جاءت بشق إنسان ؛ وهو الجسد الذى ألقته القابلة على كرسيه حين عرضته عليه ليراه. فكان ذلك محنته لأنه لم يستثن لما استغرقه من الحرص وغلب عليه من التمنى، وذلك بالنسبة

لمقامه خلاف الأولى، وقد عَدَّه ذنبًا فأناب إلى الله ورجع إليه، وإلى ذلك ذهب المحققون كالقاضى عياض وغيره».

سألنى شاب فى أعقاب خطبة جمعة تَغَنَّى فيها الخطيب بهذه القصة، وذكر أن زوجاته كن سبعين امرأة، سألنى هذا الشاب: كيف يستطيع رجل فرد أن يطوف بهذا العدد الهائل من النساء فى ليلة واحدة؟ إنَّ أبسط تصور ينفى هذا. والغريب أننى سمعت - فى التلفاز ذات مرة وقبل نشرة أخبار الساعة التاسعة فى القناة الأولى المصرية - عالمًا جليلاً يعيد نفس القصة ويستخرج منها نفس العبرة: سليمان لم يستثن أى لم يقل إن شاء الله. ولقد نقل أسد فى ترجمته لمعانى القرآن رأى الإمام الفخر الرازى، والذى رفض كل الروايات ذات الأصول التلمودية، وفسّر الجسد الذى أُلْقى على كرسيه أو عرشه أنه رمز للقوة الملكية التى عادة ما تَنْسى قرينتها الطيبة «القيم الدينية» حتى تصير فى النهاية «جسدًا» بلا روح.. جسدًا من تراب فى حاجة لنفخة الروح لتبعث فيه الحياة الطيبة بإذن ربها.

الحاكم فى كل مكان وزمان معرضٌ دائمًا لهذه الفتنة: نسيان عالم القيم والانشغال بالبناء الطينى آناء الليل وأطراف النهار، والله - سبحانه - يقول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠].

وسليمان - عليه السلام - وهو نبى ملك معرض لنفس الفتنة، وقد ورث عن أبيه ملكاً عظيما.. ويبدو أن هذا الملك المادى

فتنه قليلاً وألهاه عن شقه الروحى، ولكن سليمان الملك سرعان ما أناب.

والإنابة تحتاج أولاً إلى إدراك الخطأ ثم محو هذا الخطأ بطريقة مثلى. ومصيبة الحاكم فى نفسه وفى قومه أن يكون أعمى فلا يبصر خطأه، ويحسب أنه يحسن صنعًا. والمصيبة الكبرى أن تكون حضارة بأسرها حضارة عمياء فلا تبصر خطأها، ومن ثم لا تبحث عن حل بديل.

ولكن الحاكم المسلم سليمان - عليه السلام - من ورائه شريعة تنبع من عالم قيم جاءت للإنسانية وحيًا، وهى - وإن غفل عنها قليلاً - فتنةٌ من ربه، إلا أنه يعرف أن المؤمن فى أى موقع لابد أن يتحسس موقع قدمه ليعرف هل زَلَّت عن الطريق أم لا، ثم يعود مصححًا حسب هذه الشريعة القيمية التى تحكمه فى كل ما يفعل. وعملية الإنابة هذه ليست بالضرورة عملاً فرديًا، وإنما ينبغى للحاكم أن ينشئ لها المؤسسات القادرة على تحقيقها بدءًا من مؤسسات تعرف الخطأ وتقيسه، ونهاية بمؤسسات تمحو أثره وتستبدل به الطريق الأقوم.

سليمان الملك النبى فهم الدرس ووعاه؛ ولذلك كان دعاؤه الرائع: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.. ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده.. ما هذا الملك؟ وما طبيعته؟.. هل هو الملك المادى؟.. لقد كان عنده منه الكثير.. ولكنه كان يطلب من ربه أن يمكنه من القدرة على أن يقيم ملكه

على القيم التى جاءته وحيًا، وهذه القدرة هى عطاء من الله لسليمان، ولكنها لا تورث كما يورث الجزء المادى من الحكم، وكل ملك أو حاكم ينبغى عليه أن يسعى لتأهيل نفسه لها عند ربه فهى قدرة لا تورث، ولا تَفتِنُ مَن بَعْدَه.

فالحكمة هبة من الله لا يرثها الأبناء عن الآباء، ولا تنبغى لابن لأنها كانت عند الأب. هذا فى رأينا المعنى الأقرب لطبيعة سليمان النبى الملك، وليس ما ذهب إليه كثير من المفسرين الذين رأوا فى دعائه شقًّا ماديًّا من ناحية ضخامة الحكم، وهو أمر لا يليق بنبى أن يطلبه من ربه. وهل يمكن أن يطلب نبى من ربه أن يعطيه ملكًا ماديًّا لا ينبغى لأحد من بعده؟

بل إن نبى الله سليمان يدعو ربه ألا يفتن من بعدَه بالجزء المادى الذى عادة ما يفتن الملوك والحكام، وألا يبقى من سيرته إلا ما ينفع الناس من ذكر هذه القدرة الفذة التى أقام بها سليمان الملك على دعائم من القيم التى جاءته وحيًا.

ورغم ذلك.. رغم حساسية هذا المَلك النبى من فتنة المُلك المادى فإن الله وفقه إلى الخير كله، فريح كل شىء كانت تجرى بأمره رخاء حيث أراد وقصَد؛ ريح السياسة وريح الاقتصاد وريح الاجتماع، بل إن الله تبارك وتعالى أعانه على كل المردة من شياطين الإنس والجن، فجعلهم مسخرين له فى بناء دولته، أو فى الغوص بحثًا عن كنوز الأرض، وأقْدَرَهُ كذلك على الأشقياء منهم فهم مقرنون فى الأصفاد.. لا يستطيعون أن يحاربوه أو يفسدوا عليه عمله.

هذا جزاء الملك النبى سليمان فى الدنيا.. عطاء من الله يمنّ به أو يمسك بغير حساب، أما جزاؤه فى الآخرة فهو القرب من الله وحسن المآب.

ويا أيها الرؤساء والملوك هذا هو درس سليمان لكم.. أقيموا الملك على عُمدِ القيم..كل القيم.. على مستوى الفرد فى نفوسكم، وعلى مستوى الجماعة فى أمتكم، وعلى مستوى العالم فى كوكبكم.. فإن فعلتم ذلك فسوف تجرى الريح بأمركم رخاء حيث أصبتم، وسوف يسخر الله لكم أمتكم للبناء والغوص، وسوف يُقْدِرُكم على العصاة والمجرمين، وسيضع فى أيديكم القدرة على الثواب والعقاب فتمنُّون أو تمسكون.. ثم يكون لكم فى الآخرة هذا القرب الحبيب من الله وحسن المآب.

الفصل الرابع
السهم المشير إلى شمولية الرسالة القرآنية

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

[الناس: ١ - ٦].

هذه السورة تلفت نظر المؤمن إلى طبيعة الرسالة القرآنية، فهى رسالة تنجيك من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنّة والناس فى أمور ثلاثة:

- **الأمر الأول**: يتعلق بالأرزاق والعلاقات البينية بين الناس.
- **الأمر الثانى**: يتعلق بنظم الملك والسياسة العدلية فى الأمة.
- **الأمر الثالث**: يتعلق بالغيب الدينى.. طبيعته وآفاقه.

فالأمر الأول يستدعى الاستعاذة بالرب، والرب هو الذى يرعى ويربِّى ويرزق، وهو سبحانه يفعل هذا حتى لو كان الإنسان فى فلاة وحده من غير مجتمع ولا أمة. ونحن نستعيذ بالله فى هذا الأمر، أى نلجأ إليه طالبين العون خاضعين لما أمر ولما نهى، ومستبصرين بالقيم التى أرساها فى كتابه، تنير لنا الطريق، وتهدينا سواء السبيل.

والمسلم يستطيع فى أى مكان فى الأرض أن يلجأ إلى **الله**، ويقيم أمره وأمر أسرته ومجتمعه القريب **حسب تعاليم الله**، قدر استطاعته.

رأيت مسلمين فى أقصى الأرض وفى بلاد لا تحكمها شريعة الإسلام يحاولون قدر جهدهم أن يلتزموا بتعاليم الكتاب فى أمور الأرزاق والأخلاق الاجتماعية، يأكلون حلالاً ويشربون حلالاً، ويتورعون فى معاملاتهم عن الربا، ويتعففون عن الحرام فى العلاقات البينية، ويتقون **الله** فى أموالهم، ويلتزمون بالشريعة فى توزيع إرثهم.. يفعلون ذلك وهم فى بلاد لا علاقة لها بشريعة الإسلام، وهم فيها قلّة مغمورة لا تستطيع أن تغير أحوال المجتمع الكلية، ورسالتها حينئذ تتركز فى الدعوة وإعطاء المثل الحسن، والاستقامة قدر الاستطاعة على هدى الكتاب المنير.

– والأمر الثانى المتعلق بنُظم الملك والسياسة العدلية فى الأمة يستلزم اللجوء إلى **الله** الملك الذى وضع فى كتابه كل القيم اللازمة لبناء نظام سياسى يقوم على الشورى والعدل، ووضع المقاييس التى بها نحكم على أى نظام سياسى قربًا أو بعدًا من الرشاد.

بل علمنا كيف نتعايش مع غيرنا من الأمم.. كل ذلك فى مجموعة من القيم والأمثلة التاريخية الحية التى يمكن أن نستلهمها فى بناء نظام سياسى يقوم عليه الملك.

وبالطبع هذه مهمة الأمة ككل، وليست مهمة أفراد متناثرين في دولة لا تؤمن بهذا الكتاب.

والأمة المؤمنة تصنع من قيم الإسلام نظامها السياسى والعدلى قدر الاستطاعة، فهى لن تغير العالم من حولها فى يوم وليلة، ولكنها تضع نصب عينيها الدعوة إلى قيمها فى التعاون الإنسانى والتعارف بين الأمم، والدفاع عن المظلومين والمستضعفين، وتهرع دائمًا إلى أى عمل إنسانى عالمى مشترك يحقق الحسنى للناس.

والأمر الثالث المتعلق بالغيب الدينى – آفاقه وطبيعته – يستلزم اللجوء إلى الله فى كتابه المبين؛ فالله وحده هو الذى يحدد لنا منظومة الغيب الذى ينبغى أن نؤمن به، وليس من حق أحد أن يضيف إليها أو ينقص منها. فالغيب فى القرآن يوجهنا إلى الإيمان بالله من خلال النور الذى يضفيه جل وعلا على كل مخلوقاته، فينعكس هذا النور إلينا خيرًا معجزًا فى كل نواحى الكون المحيط.

والغيب فى القرآن يعلمنا أننا لسنا وحدنا فى هذا الكون الفسيح، وأننا سنحاسب على كل صغيرة وكبيرة، وأن للذين آمنوا الحسنى وزيادة. **والغيب يعلمنا أن نؤمن** بالجنة كما وصفها ربها فى القرآن، والنار كما وصفها ربها فى القرآن، لا نزيد ولا ننقص، وأن البعث حق، والحساب حق، والجنة والنار حق.

المهم أن المؤمن يبحث عن منظومة الغيب الكاملة فى القرآن الكريم، ولا يلجأ إلى أحد غير الله فى تحديد هذه المنظومة التى

تمثل له الجدوى من الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وبدونها تصبح الحياة عبثًا كاملاً.

- وفى كل هذه الأمور نلجأ إلى الله، نحتمى به من الشرور التى ستحيط بنا إن استمعنا إلى وسوسة الخناس.

والخناس هو الذى يرقبك دومًا، فإن وجد فيك ضعفًا هجم عليك، يدعوك إلى الضلال، فإن رأى منك قوة فرّ إلى حين؛ فهو معك فى كرّ وفرّ، يستعين عليك بضعفك، ويهرب من قوتك.

وهذا الوسواس الخناس يأتيك مستترًا كالجِنّة، أو يأتيك ظاهرًا كالناس، يلاحقك مثل أنفاسك، يهجم عليك فردًا فى معايشك، ويهجم عليك كأمة فى نظمك السياسية، ويهجم عليك فى عقائدك، فلو استهنت به قتلك؛ فخذ حذرك كفرد وكجماعة وكدولة، واستعذ بالله الملك الرب منه.

وبعد.. أرأيت كيف لخصت هذه السورة الصغيرة كل أهداف رسالة القرآن؟ ونبهتك إلى شمولية هذه الرسالة، وأنك مطالب أن تحقق هذا الشمول كفرد وكجماعة وكأمة قدر استطاعتك، وحسب درجة تمكينك؟!

الفصل الخامس

الثموديون الجدد

عاقرو ناقة الإنتاج

ألم تر إلى جيش الوكلاء التجاريين ممثلى الشركات الأجنبية من كل جنس ومن كل لون؟

وهل رأيتهم وهم يصدونك عن توطين صناعات تحتاجها، ويصرفونك إلى الخارج بكل ما أوتوا من براعة البيان وزخرف القول؟ وهل رأيتهم وهم ينشئون فى وطنك مراكز للبحوث تدرسك كيف تأكل وكيف تشرب وكيف تلبس، ثم ينقلون ذلك إلى مصانع بلادهم، ثم يغزونك غزوًا حتى فى الجلابيب البلدية وسجادة الصلاة؟

ألم تر كيف صنعوا لك سبحة أوتوماتيكية تسبح بها لله؟!

هم يحاصرونك من أدنى التكنولوجيا إلى أعلاها؛ حتى يصرفوك عن مبدأ «مما صنعت يداك» إلى «مما صنعت أيديهم». هذا الجيش له فى كل واد عميل، يسهل له الأمر، ويزينه لنا، حتى لو لم يكن فى أذهاننا ما يريدون.. ومن التزيين تسهيل الإقراض عن طريق بنوكهم التى لم تعد تكتفى بدور اقتصادى، بل تجاوزت ذلك الآن وأقحمت نفسها فى الاجتماع والسياسة والفن والأدب.

قرأت فى الصحف منذ مدة أن إحدى الوزارات تفكر فى تصنيع قطار فى الخارج يقطع المسافة بين الإسكندرية

والقاهرة فى أربعين دقيقة، وأن المشروع سيتكلف عشرة مليارات دولارية، أو حتى من الجنيهات. أنا أحيانًا أذهب من محطة الرمل فى الإسكندرية إلى شقتى فى سابا باشا فى أكثر من ساعة، وكل يوم أذهب من بيتى فى المعادى إلى مكتبى فى جامعة القاهرة فى حدود الساعة. ما الذى يستفيده المصرى من تقليل الوقت من ساعتين إلى أربعين دقيقة فى سفره إلى الإسكندرية؟ وهل هذه أولوية للشعب المصرى، وهل نملك العشرة المليارات أم سنقترضها؟ إن أهم القرون التى يمسك بها الاستعمار الغربى شعوبنا هى هذه القروض، فمن الذى يزين لنا هذا المشروع وما نصيبه منه؟

وأنا لست ضد الوكلاء التجاريين الوطنيين الذين يخدمون بلادهم بتقديم خدمات ومنتجات يحتاجها الناس وليس لها بدائل وطنية، إنما أتحدث عن هذا الصنف من الوكلاء التجاريين الذين يحاربون التنمية فى بلادهم بتزيين منتجاتٍ، نحن عليها قادرون، أو على تطويرها عازمون، وخاصة إذا كانت هناك فرجة من الوقت تتيح لنا هذا التطوير.

إننا ننشئ أحيانًا مصنعًا يكلفنا بضعة مليارات، ثم لا نتدبر فى أننا فى خلال سنوات قليلة سنحتاج إلى عمليات إحلال وتجديد، ربما لو فكرنا مبكرًا وأنشأنا جهازا بحثيًا تطويريًا لعمليات الإحلال والتجديد المستقبلية لأنجزنا بذلك أمرين: الأول أننا ربما أصبحنا قادرين على إنشاء هذه المصانع، والثانى أنه عندما يحين وقت الإحلال والتجديد يتم ذلك بتكلفة قليلة مُثلى.

فى مجال تخصصى فى هندسة الطيران والفضاء عندنا فرجة زمنية لبناء أقمار صغيرة بأيدٍ مصرية. ونحن فى مجلس الفضاء لايزالُ الحوار بيننا قائمًا لم يحسم بعد: كيف نتعاون مع الخارج؟.. هل نلقى إليه بأموالنا ليبنى لنا أقمارًا، وربما أرسلنا بعض المهندسين يتلقون بعض الفتات الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع؟ أم الأصلح أن نحاول بناء أقمارنا بأيدينا ونستعين ببعض الخبراء من الخارج فيما توقفنا فيه؟ بالطبع جيش الوكلاء التجاريين يضغط يمينًا وشمالا، ويكر ويفر، والله أسأل أن يثبتنا على الحق فى هذا الطريق الزلق.

وبعد، فقد تذكرت كل هذا وأنا أقرأ ذات مساء فى صلاة العشاء قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ - ١٥] تبدأ الآيات بتقرير أصل الداء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾. وكل أمة هالكة تكذب بطريقتها، وثمود كذبت ربها ورسولها بالطغيان. والطغيان يصد الأتقياء والشرفاء عن الساحة، ويبعث المجرمين والأشقياء فينبعثون. الطاغية بطبيعته لا يحب الأتقياء العلماء أن يكونوا حوله، يحب من يزين له طغواه ويمتدح عبقريته آناء الليل وأطراف النهار.. وهذا هو لب الفساد فى عملية الطغيان.. ليس فقط فى طبيعتها الكريهة، ولكن لأنها طاردة للكفاءات المخلصة، جالبة وباعثة للأوغاد واللصوص والخونة فينبعثون كالفراش المبثوث، ويحولون مجتمعاتهم إلى عهن منفوش.

هذا الجيش المنبعث من الأشقياء بين أيديهم ناقة.. وما الناقة؟.. أليست هى وسيلة الإنتاج الأساسية التى تملكها ثمود؟.. تحملهم من مكان إلى مكان، وتعطيهم الألبان، وعندما تعجز عن ذلك يأكلون لحمها. ولكن الأشقياء يريدون العاجلة ولا يريدون الآجلة، يريدون لحمها الآن ولا يريدون أن يصبروا على لأواء التنمية. ينصحهم رسولهم صالح: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] أى خططوا نظامكم التنموى بحيث تخصصون جزءاً للعاجل وتستبقون جزءًا للآجل.. من أجل مستقبلكم أنتم ومستقبل أولادكم.. إنهم لا يريدون أن ينفقوا على التنمية ويصرون أن يقتلوها ويمنعوا شربها.. والشرب هو الذى يبقى الحياة، ومنع الشرب يقتلها، ولكن الثموديين القدامى أصروا على موقفهم ومنعوا الناقة شربها؛ أى منعوا التنمية نصيبها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها.

وسبأ عندما أهملوا صيانة سدهم، وقد كان هذا هو وسيلة إنتاجهم، تشردوا فى العالمين وباعد ربهم بينهم وبين أسفارهم. وكل أمة تهمل وسائل إنتاجها - والتى هى جوهر تنميتها - سوف يدمدم عليهم ربهم بذنبهم ويمحقهم.

وبعد، فنقول لجيش العملاء الذين يتفننون فى إغوائنا لنقتل وسائل إنتاجنا: أيها الثموديون الجدد.. عاقرو ناقة الإنتاج.. ألا بعدًا لكم كما بعدت ثمود...

الفصل السادس
أصحاب اللهب وحمّالو الحطب

أتردد كثيرًا فى قبول بعض التفاسير التى تغلق آيات القرآن فى حادثة تاريخية بحيث تنقلك من النص المعجز إلى حكايات رواها الرواة، وتغلق عليك الباب فلا تفكر ولا تتدبر فى الإعجاز المذهل الذى يحيط بالآيات الكريمة.

ومن هذه الآيات سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾.

هذه الآيات المعجزة وضعها المفسرون فى زنزانة تاريخية تتعلق بعم سيدنا رسول الله - ﷺ - عبد العزى بن عبد المطلب، ووصفوا هذه الروايات التاريخية بأنها «أسباب نزول» هذه الآيات.

وربما وقعت حادثة فى وقت نزول آيات قرآنية، فذلك ينبغى ألا يجعلنا نربط بين هذه الآيات وتلك الحادثة، إلا إذا كان ذلك مما احتوته هذه الآيات وأشارت إليه إشارة واضحة لا لبس فيها.

وفى هذه الآيات إشكال عجيب. فهذا عبد العزى يُتَوعد أنه من أهل النار هو وزوجته، ومعنى ذلك - وكما يقول بعض المفسرين القدماء - أنه مطلوب منه أن يؤمن بأنه لن يؤمن، فمادام المرء

حيا يظل مطالبًا بالإيمان بالقرآن، والرجل كان لا يزال حيًا عندما تنزلت هذه الآيات، ولا يزال القرآن يطالبه بالإيمان به، فكيف يؤمن بكتاب يؤكد أنه لن يؤمن وأنه من أهل النار؟!

ومن الإشكاليات الأخرى أنهم زعموا أن عبد العزى بن عبد المطلب كان يُكنى بأبى لهب لتلهب وجنتيه وإشراقهما، والتكنية من باب التعظيم، فكيف يخاطبه ربه بالتعظيم وهو من أهل النار؟ ولعل القارئ يعود إلى التفسير الكبير للإمام الرازى ليجد معظم الروايات التى تحيط بالتفسير التاريخى لهذه الآيات، والتى اكتفيت منها بذكر إشكالين من إشكاليات هذا النوع من التفسير ذكرهما الرازى فى تفسيره.

حتى أسباب النزول التى ربطوا بها هذه الآيات جاءت مختلفة ومضطربة، ومن أعجبها أن رسول **الله** – ﷺ – دعا عمه عبد العزى نهارًا فأبى، فلما جنَّ الليل ذهب إلى داره مستنًّا بسنة نوح ليدعوه ليلاً كما دعاه نهارًا، فلما دخل عليه قال له: جئتنى معتذرًا، فجلس النبى – عليه السلام – أمامه كالمحتاج وجعل يدعوه إلى الإسلام، وقال: إن كان يمنعك العار فأجبنى فى هذا الوقت واسكت، فقال: لا أومن بك حتى يؤمن هذا الجدى، فقال – عليه السلام – للجدى: «مَنْ أنا؟» فقال الجدى: رسول **الله**، وأطلق الجدى لسانه يثنى عليه، فاستولى الحسد على أبى لهب، فأخذ يدى الجدى ومزقه وقال: تبًّا لك، أثَّر فيك السحر، فقال الجدى: بل تبًّا لك، فنزلت السورة على وفق ذلك ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ لتمزيقه يدى الجدى.

ورأى آخر رواه محمد بن إسحاق: يروى أن أبا لهب كان يقول: يعدنى محمد أشياء لا أرى أنها كائنة، يزعم أنها بعد الموت، فلم يضع فى يدى من ذلك شيئًا، ثم ينفخ فى يديه، ويقول: تبًّا لكما ما أرى فيكما شيئًا، فنزلت السورة. ولا نريد أن نستطرد فى ذكر مثل هذه الروايات؛ لأن المنهج الذى سنسير على هديه يعتمد على تحرير هذه الآيات من قيود الروايات الثقيلة التى تحول بيننا وبين استشراف المعانى الرفيعة التى تشرق من هذه الآيات.

- تفسير حضارى للسورة:

تحدثنا هذه السورة وتصف لنا ما نسميه «مؤسسة الفتنة» التى لا يخلو منها وجه الحياة فى كل مستوياتها الفردية والأسرية والاجتماعية والدولية.

وفى هذه المؤسسة قسمان كبيران: قسم التخطيط، وقسم التنفيذ، أو قل: قسم التأليف، وقسم الأداء.

وقسم التخطيط هو الذى يصنع وقود الفتنة ويجمع حطبها، وفى سبيل ذلك يدرس هو كل الخيوط التى يمكن أن تسهم فى صناعة الفتنة: خيوط عقيدية، وخيوط نفسية، وخيوط اقتصادية، وخيوط اجتماعية، وخيوط عنصرية، وخيوط سياسية وخيوط قانونية. وبعد أن يدرس كل هذه الخيوط يفتل منها حبل الفتنة أو المسد. فالمسد لغة هو الحبل المفتول من أى مادة كان. والقرآن يعبر عن هذا القسم من مؤسسة الفتنة ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾.

وليلحظ الأخ القارئ وصف هذه المؤسسة بأنها حمالة الحطب (بفتحة على التاء فى حمالة)، أى أن «حمالة» هنا هى حال لهذه المؤسسة الخبيثة، كما أن هذا الحبل المفتول من الدهاء والمكر والإجرام هو الذى يقودها إلى التهلكة، ممسكًا بعنقها إلى النار فى الدنيا والآخرة.

أما القسم الثانى من مؤسسة الفتنة فهو قسم التنفيذ، أو قسم الأداء، وهذا هو القسم الظاهر للعيان؛ ولذلك جاء ذكره فى السورة أولاً؛ ذلك أن قسم التخطيط غالبًا ما يخفى عن الأعين: فى الحجرات المظلمة، فى دوائر الاستخبارات، أو فى عقول المجرمين الأشرار، ويحتاج إلى عيون بصيرة، وذكاء صبور عالم لتبيُّن آفاقه ومعرفة جوانبه. ويحتاج قسم التنفيذ لثلاثة مقومات:

القدرات المالية – القدرات الفنية – الإشراق فى مجالات التنفيذ.

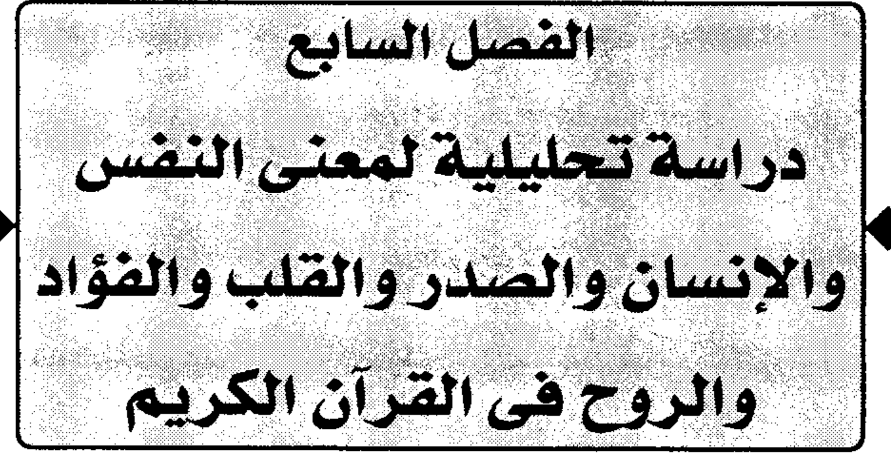
ولقد عبر القرآن عن القدرات المالية والقدرات الفنية باليدين، وعبر عن الإشراق فى الأداء باللهب. فالمطلوب من منفذى الفتنة أن يقوموا بعمليات استلاب عقلى وفؤادى للبشر المطلوب فتنتهم؛ حتى يقعوا فى الفتنة ويجاهدوا من أجل الوقوع فيها. واللهب هنا هو هذا البهاء والإشراق الذى يتمتع به بعض الأشخاص، سواء كان ذلك فى الفنون أو الآداب بأنواعها المختلفة، أو قل هو القدرة على سحر الناس وصرفهم إلى الفتنة صرفًا بألاعيب الحواة من شعر وأدب وتمثيل وتخييل وإغراء فى السياسة والاقتصاد، وأوهام فى التنمية، واستخدام للعقائد والأفكار، وصرفها جميعًا إلى الاندفاع الأهوج فى أحضان الفتنة.

ومخططو الفتنة هم فى العادة أصحاب المصلحة من ورائها، وهم المستفيدون من إشعالها، أما المنفذون ففى العادة هم خونة أُجَراء يبتغون من أجل التنفيذ مالاً أو جاهًا أو سلطانًا.

مخططو الفتنة يعرفون ما يريدون من إفساد فى الأرض من أجل مغانم لأنفسهم أو لبلادهم، ولكن كثيرًا من منفذى الفتنة بلهاء أجراء ينفذون ولا يدركون أن ما يفعلون سوف يكون وبالاً عليهم وعلى شعوبهم، ولذلك يؤكد القرآن أن ما يفعله هؤلاء - بوعى أو دون وعى - سوف يكون وبالاً عليهم وهلاكًا لهم وضياعًا لما ابتغوه من مال أو مكاسب أخرى، وأنهم فى النهاية سيُصْلَون بهذه النيران التى أضرموها هم وهؤلاء المخططون فى أروقة الشر والإجرام فى الغرفات المغلقة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾.

مسابقة لأولى النهى:

انظر إلى العالم من حولك، وإلى أحوال الدنيا، اجتماعًا وفكرًا واقتصادًا وسياسة وحربًا وسلمًا، وحاول أن تتبين معالم الفكرة العالمية بأعضائها المتعددة، وحاول كذلك أن تتبين من هم أصحاب اللهب، ومن هم حاملو الحطب فى كل هذه الفتن.. وللذين يحسنون التبيين والوصف جائزة قيمة، وأنا بهذا زعيم.



الفصل السابع

دراسة تحليلية لمعنى النفس والإنسان والصدر والقلب والفؤاد والروح فى القرآن الكريم

أقرأ القرآن مثلما يقرؤه ملايين غيرى، وأمر على ألفاظه وأظن أنى أفهمها، ثم يتبين لى فيما بعد أن فهمى لهذه الألفاظ هو فهم غير دقيق متأثر بالاستخدام الأدبى الشائع فى ثقافتنا العربية، وهى ثقافة غير دقيقة علميًا فى بعض الأحيان.

وأعتقد أن أى فهم للقرآن وأى تفسير له لا بد أن يمر بمرحلة أولية تتعلق بالتدقيق فى الألفاظ المختلفة، فكل لفظ له مساحة معينة، وقد يشترك معه لفظ آخر فى جزء من المعنى، ولكنه لا يتطابق معه.

وأنا من المؤمنين أن الترادف موجود فى اللغة العربية السائدة ولكنه غير موجود فى القرآن الكريم، أعلم أن هذا الأمر اختلف حوله بعض العلماء القدماء، ولكنى مع المدرسة القائلة باستحالة وجود ترادف معنوى فى القرآن الكريم. ولقد وقع فى يدى كتاب نفيس اسمه «أسرار الترادف فى القرآن الكريم» للدكتور على اليمنى دردير فوجدته يدافع عن المدرسة التى تقول بعدم وجود ترادف فى القرآن الكريم.

وفى صباى قرأت لبنت الشاطئ مقالات عدة حول هذا الأمر كانت قد نُشرت فى مجلة «المسلمون» عندما كانت تصدر من جنيف فى أوائل الستينيات.

وعلى كل حال، عكفت منذ فترة أتدبر فى ألفاظ مثل: النفس والإنسان والصدر والفؤاد والقلب والروح، مستعينا بفهمى للقرآن، محاولاً أن أضبط مساحة المعانى لكل لفظ.

وفى الأيام القليلة الماضية جمعت ما عندى من وريقات ورأيتنى وكأننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم.. هذه على كل حال محاولة، وهى مطروحة للنقاش، ولعل بعض العلماء يقومون بتحديد أكثر رشدًا لمعانى هذه المفردات؛ حتى نصل إلى الرشد الذى نبغيه، والله من وراء القصد.

- **النفس**: هى كينونة حية، وتتكون من الجسد بكل أجهزته البيولوجية، ومن كينونة نفسية (الصدر).

- **الإنسان**: النفس التى اختارت حمل الأمانة التى عرضها الله ﴿عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

- **موت النفس**: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

والمعنى أن الله يتوفى الأنفس؛ أى يسترد منها - كاملاً - الأمانة التى حمَّلها إياها، وهذا يحدث عند موتها أو عند

منامها. وموت النفس هو مفارقة الكينونة النفسية للجسد وانتقالها للبرزخ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

- **الأمانة**: التى عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان هى أن يُمنح القدرة على الاختيار بين التقوى والفجور، ويتحمل مسئولية قراره فى الدنيا والآخرة، وهذه الأمانة تُتوفى من الإنسان فى حالتين: الموت والنوم، وفى الحالتين لا يصبح الإنسان مسئولا عن شىء.

- **الإنسان**: الذى اختار الإيمان والعمل الصالح يرفعه الله إلى أعلى عليين، ويجزيه جزاء غير ممنون. والإنسان الذى يختار الكفر والجحود والعلو فى الأرض والفساد فيها يرده الله أسفل سافلين، وهو هذا الإنسان الضعيف الظلوم الجهول اليئوس الكفور الجدل الكنود.

- **والمجتمع**: الذى يختار إنسانه الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر هو مجتمع فائز بإذن الله تعالى. أما المجتمع الذى يختار إنسانه الكفر والفساد، ولا يتواصى بالحق والصبر ؛ فهو مجتمع يمضى فى طريق الخسران: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

والله تبارك وتعالى عندما ألهم النفس الإنسانية فجورها وتقواها عرّفها بهذا الفجور وتلك التقوى، أو أودع فيها نزعة تعرف بها الفجور والتقوى، أو فطرها بطريقة تستدل بها على الفجور والتقوى عن طريق بحثها عن الرسالات السماوية وانتظار الإشارات العلوية لبشر ملهمين أو موحى إليهم، أو أصحاب معجزات خارقة ورسالات واضحة.

ولولا هذه النزعة الإنسانية فى نفس الإنسان والتى يسميها القرآن «الفطرة» التى فطر الله الناس عليها، لولاها لما تجمع الناس حول الرسل والمصلحين وتحملوا معهم كل ما تحملوه من فتن وعذاب وشقاء.. إن الجوع هو أداة الإنسان فى البحث عن الطعام، كذلك الفطرة هى أداة الإنسان فى البحث عن الرسل لتعليمهم ما الفجور وما التقوى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

أى: أنك أيها المسلم، وأنت تبحث بفطرتك عن الفجور والتقوى لا تذهبن إلى أى مرجعية غير الدين فى تعريفهما، ولا تخلط بتعريف الدين أى تعريف آخر، فسوف يحيط بك الشيطان بجنوده، يضعون أمامك تعريفات من هنا ومن هناك، فامض أيها الإنسان حنيفًا مسلمًا؛ أى امض إلى التعريف الذى جاءك به الإسلام غير ناظر إلى غيره.

فالفطرة إذن ليست الدين، ولكنها الشوق والحاجة والجوع فى الإنسان للتعرف على الدين الحق والبحث عنه، وعندما نقول «الإسلام دين الفطرة» نعنى أن الإسلام هو الدين القيم الذى ستختاره الفطرة من بين ملايين الأفكار والديانات، إذا استقبلته من غير عوائق نفسية، واستمعت إليه متجردًا من الأهواء الحاكمة فى نفوس أصحابها.

تسوية النفس:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] – ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢].

ما التسوية؟ فى رأى «أسد»: التسوية هى خلق الإنسان مهيئا لأداء الرسالة التى استخلفه الله فيها، صغرت مهمته فى الحياة أم كبرت. ورأينا يتفق مع «أسد». ويعنى ذلك أن الله يزود الإنسان بقدرات جسدية ونفسية تهيئُه تماما للمهمة الملقاة على عاتقه فى البيئة التى سيحيا فيها.

الروح:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

﴿وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١ - ٥].

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: ١٠٢].

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

ومن هذه الآيات البينات نستخرج هذه المعانى:

١- ينزِّل الملائكة بالروح من أمره: أى ينزل وحيا على قلب من يشاء اختياره لرسالة يؤديها.

٢- تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر: أى تتنزل الملائكة فتقذف فى قلوب من شاء الله أمورا مبشرات ومنذرات.. أمورا خاصة بهؤلاء العباد وبحياتهم وحدهم.

و حدثتنى سيدة جليلة (هى السيدة قدرية حسن مأمون) أنها كانت فى عمرة رمضانية منذ سنوات، وكانت تتعبد فى صحن الحرم المكى منتظرة صلاة التهجد، وكان ذلك فى ليلة التاسع والعشرين من رمضان، وبينما هى مستغرقة فى أدعيتها نادتها سيدة تجلس بجوارها ولا تعرفها قائلة: يا أخت، انظرى إلى السماء.. إنها ليلة قدرية. فلما نظرت إلى السماء وجدت كأن هناك دائرة ضوء ساطع حول مساحة الحرم، بينما الدنيا سواد حالك خارج هذه الدائرة؛ فدعت الله أن يبرئ زوجها من مرض خبيث أحاط به، وأن يرزق ابنتها مولودًا –وكانت لا تلد– وأن يهيئ لها أسباب الحج، وكانت لا تملك القدرة عليه.

فلما عادت إلى القاهرة تحققت كل أمنياتها من حيث لا تحتسب.. شفى الله زوجها، وحدثتها ابنتها من الخارج تبشِّرها بحملها، واختارها المصرف الإسلامى فى قرعة الحج. ومثل هذه الأمور تحدث للصالحين فى كل مكان، فتتنزل الملائكة بالروح من كل أمر على قلوب المؤمنين تبشرهم بفرج قريب، أو تنذرهم عاقبة طريق يؤدى إلى هلاكهم، أو ترشدهم إلى فكرة جديدة تنفعهم فى الحياة، أو تلهمهم فهمًا للقرآن ينفعهم فى معضلاتٍ حياتية، بل قد تلهمهم فكرة علمية أو تقنية تفيد الناس. والله تبارك وتعالى يقول عن نوح – عليه السلام – ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِى فى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧]، فحتى العلم والتكنولوجيا قد تنزل بهما الملائكة بالروح من كل أمر.

وعندما يمنّ الله على بشر تنزل الملائكة بأمر وحيى على قلبه ينير له الطريق فى ليلٍ حياتى أو ليل فكرى أو ليل علمى أو ليل تقنى، تكون هذه الليلة التى يتنزل فيها هذا الخير ليلة القدر بالنسبة لهذا الإنسان.. أى ليلة الشرف العظيم له ولمن يلوذ به من الناس، كما كانت الليلة الخالدة التى بدأ القرآن يتنزل بها وحيًا على قلب الحبيب المصطفى ﷺ؛ فكانت هذه الليلة هى ليلة القدر للإنسانية جميعا، وهى بالنسبة للفرد خير من عمره كله ويزيد (ألف شهر)، وبالنسبة للإنسانية كلها هى خير ليلة فى عمر الزمان منذ خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٣- **نفخ الروح من قبل المولى فى إنسان**: يعنى أن يمنحه درجة الربانية، وهى أعلى درجة يحصل عليها إنسان، وهى لا تأتى إلا بعد الاستواء الكامل ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].. فالاستواء، فالربانية، فسجود الملائكة.. وكأنى أفهم من هذه الآيات أن الملائكة لا تسجد للإنسان أى إنسان، وإنما تسجد للإنسان الذى استوى، فهو فى أعلى عليين، ومنحه الله الربانية. والسجود هذا يعنى التعظيم والتبجيل لهذا الإنسان الربانى. وانظر فى حالة السيدة مريم: ﴿الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] فهى نالت درجة الربانية بناء على الاستواء الكامل وتحصينها فرجها. أما أن النفخ مرتبط بخلق عيسى فأظن أن الأمر كما قال القرآن.. إن الله قادر أن يخلق جنينا من غير ماء الرجل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩].

٤- ﴿أولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وكأن ثمرة الإيمان هى روح من الله، يلقيها على عباده المؤمنين؛ فيؤيدهم فى حياتهم. فروح من الله فى هذا المقام تعنى التأييد والتعضيد والمؤازرة، يستشعرها المؤمنون فى مواقفهم الإيمانية فى الحياة، هذه الروح التأييدية تحملها الملائكة، وتتغشَّى بها المؤمنين فى حركة الحياة الدائبة.

٥- روح القدس: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: ١٠٢] ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] روح القدس هنا هو تثبيت الوحى فى القلوب حتى لا تنحرف عنه.

٦- ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] و﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] وكأنى أفهم من هذه الآيات أن الملائكة هم حملة الرسائل الروحية، أما الروح أو الرسالة الروحية فنحن نعرف محتواها ولا نعرف ماهيتها، ولا نعرف كيف تلقيها الملائكة فى قلوب العباد، ونحن نعرف محتواها بعد أن تتحول فى قلوب الرسل والأنبياء وأهل الإلهام إلى حقائق ندركها بعقولنا. وكأنى أفهم من ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ أى نزل به حامل الرسالة الروحية الأمين، وهو فى آيات أخرى جبريل عليه السلام.

٧- ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] أى فأرسلنا إليها حامل هذه الرسالة الروحية فظهر لها بشرا سويا.

الصدر:

قلنا إن النفس الإنسانية التى قبلت حمل الأمانة تتكون من جسد طينى ومن الصدر، والصدر هو وعاء القلب بمدخلاته ومخرجاته، ومدخلات القلب هى السمع والبصر والفؤاد.. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

والفؤاد هو المسئول عن استقبال الإشارات الجمالية والروحية والفكرية وتوصيلها إلى القلب، كما أن السمع مسئول عن الإشارات السمعية، والبصر مسئول عن الإشارات البصرية.

وكما يزيغ البصر أمام الإشارات البصرية يزيغ الفؤاد أمام الإشارات الجمالية الروحية، وكما يعمى البصر وتصم الأذن، فكذلك يفرغ الفؤاد ويصبح فارغا.

والقلب هو الذى يستقبل كل الإشارات البصرية والسمعية والفؤادية ويجرى عليها عمليات التعلم والتذكر والتعقل والتفقه والتبصر، ومخرجات القلب هى العواطف والشهوات والأهواء والفكر والدوافع عمومًا.

والله قد ألهم القلوب فجورها وتقواها، ومنحها إرادة قادرة على أن تقارن بين نداء التقوى ووسوسة الفجور فى أى موقف فى الحياة ؛ ومن ثم إرادة قادرة على الاختيار بين النداءين أو «المتلقيين» بتعبير القرآن: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا

تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ١٦-٢٩].

ومحمد أسد يرى فى تفسيره أن لفظ «المتلقيان» يشير إلى عنصرين فى النفس البشرية فى عملية لقاء دائم (The two that aim at meeting each other) ونحن نتفق معه فى تأويله، ونضيف أن الرقيب العتيد يمثل عملية الرصد والتسجيل لكل توجهات الإنسان وأفعاله، سواء كانت خيرا أو شرا، وعندما يأتى يوم الوعيد يجىء الإنسان ومعه هذا الشهيد (الرقيب العتيد)، بل وتأتى معه كل الدوافع التى دفعته يمينا أو شمالا بأحداثها، وهذا هو السائق. ويبدو أن الإنسان إذا أدركته سكرات الموت يتكشف له شريط كامل بحياته.

حدثنى أستاذى الدكتور إبراهيم عبد النبى أنه أدركته سكرات الموت لحظات معدودة وهو يُعالج عند طبيب الأسنان عندما

انفصلت الآلة التى تثقب الأسنان عن جهازها واستقرت فى منطقة الزور... يقول - رحمة **الله** عليه - إنه قد عرضت عليه حياته كلها منذ أن كان طفلا حتى كان فى الجامعة والبعثة الدراسية، كل ذلك فى ثوان معدودة؛ أى إنه عليه رحمة **الله** رأى سائقه وشهيده فى تسجيل مذهل خارج حدود الزمان والمكان.

والإنسان يتأثر بالبيئة المحيطة به ويتخذ لنفسه أقرانا منها، وسواء كان هؤلاء الأقران من عالم الإنس أو من عالم الجن، وسواء كانوا صالحين أو فاسدين فإنهم يوم القيامة يعلنون عدم مسئوليتهم عن أعمال الإنسان لدرجة التخاصم فيما بينهم يوم الحساب، حتى يأتى الإعلان الربانى: ﴿**قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ**﴾. والإنسان مدعو إلى أن يستعيذ **بالله** من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس.

- **العقل ومرادفاته**: اللب - النهية - الحجر - الحجا (من كتاب أسرار الترادف للدكتور على اليمنى دردير رحمه **الله**).

العقل:

لم يرد فى القرآن كاسم وإنما ورد كفعل، وأصله الإمساك والحبس، فيقال: عقلت المرأة شعرها: حبسته ولم تطلقه، وعقل الدواء بطنه: أمسكه بعد استطلاقه، وعقل لسانه: كفه عن الكلام، ومنه العقال يقيد البعير. والمعاقل: الحصون تمنع من فيها. والعقل يطلق على القوة العاقلة التى تعقل المعلومات وتمحصها،

كما يطلق على العلم الذى يكتسب بهذه القوة؛ ولهذا قال على بن أبى طالب – رضى الله عنه –: «العقل عقلان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع». وجاء بمعناه المطبوع فى قول رسول الله ﷺ: «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل»، وجاء بمعناه الثانى فى قوله ﷺ: « **ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردى** ».

ولم يرد فى القرآن إلا بمعناه الثانى، وإلا على طلب التعقل واكتساب العلم. ولم يرد إلا بصيغة الفعل للإشعار بأنه الجانب الكسبى الذى يُطالب به الإنسان ويؤاخذ على إهماله والتقصير فى تحصيله.

أما العقل بالمعنى الأول (المطبوع) فلا دخل فيه للإنسان ولا موضع فيه للمؤاخذة والثواب..

يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

ويقول: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

ويقول: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢].

فتجد المقام فيها جميعًا مقام ذم الغفلة والتقصير والنعى على من يعطلون ملكات التدبر والتمحيص واكتساب الهداية وتحصيل العلم والإفادة منه، ثم يقول: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فتجد المقام فيها مقام دعوة إلى استخدام العقل فى اكتساب العلم وتمحيص الحقيقة والاهتداء إليها.

اللب:

يدل بلفظه على العقل الخالص المصفَّى من نوازع الهوى وشوائب الغفلة والقصور، وهو من اللب بمعنى جوهر الأشياء وحقائقها، ولا يسمى العقل لبًّا إلا حين ينضج وتزكو مداركه.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]. يقول: (أى يتبعون أنسبه لحالتهم فيحسنون القياس ويحسنون التطبيق).

يقول الراغب: «اللب: العقل الخالص؛ ولهذا علق **الله** – تعالى – عليه الأحكام التى لا تدركها إلا العقول الذكية، نحو قوله تعالى: ﴿يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِى خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ويعلق أبو السعود على الآية الكريمة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] يعلق بقوله: الألباب هى العقول الخالصة عن الركون إلى الأهواء الزائفة، وهو تذييل مسبق من جهته تعالى مدحًا للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر، وإشارة إلى ما به استعدوا للاهتداء لتأويله من تجرد العقل عن غواشى الحس.

النُّهية:

وأما النُّهية فاسم للعقل فى تمام نضجه وكمال أمره وبلوغه الدرجة التى تنتهى إليها العقول، وأصله من التناهى؛ أى بلوغ النهاية، يقال ناقة نهية ؛ أى تناهت فى السِّمن، ويسمى الغدير نهيًا لانتهاء السيل إليه، ونهاء النهار: أعلى درجات ارتفاعه.

فالنهية: العقل الذى بلغ نهاية كماله، بما انتهى إليه من معارف وحصله من تجارب؛ مما جعل العقول تنتهى إلى رأيه وتأتمر بأمره وصار إمام صاحبه وأميره، ينهاه عن القبائح ويردعه عن الهوى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فى ذَلِكَ لآَيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨].

الحِجْرُ:

العقل الذى يحجر على صاحبه ويمنعه من الوقوع فى الخطأ ﴿هَلْ فى ذَلِكَ قَسَمٌ لذى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

الحجا:

الحجا اسم للعقل الجدل،النزَّاع إلى المخاصمة والجدال والحجاج، ولم يرد لفظه فى القرآن، ومنه الأحجية والمحاجاة.

انتهى كلام الدكتور على اليمنى دردير.

ونستطرد مذكرين بأن الصدر هو وعاء القلب بمدخلاته ومخرجاته، وقلنا إن الفؤاد هو الذى يدخل الجماليات والأحاسيس العليا والعواطف إلى قلب الإنسان، كما أنها فيه رهينة، فالفؤاد

ليس مدخلاً لها فحسب ولكنها تتوطن فيه داخل القلب. وكأن القلب فيه جزءان أساسيان: الفؤاد وهو كما ذكرنا مدخل الأحاسيس والعواطف والإلهامات والإشراقات، وهو كذلك موطنها فى القلب. والجزء الثانى هو مملكة التفكير المسماة بالعقل، وكأن الجزء الأول (الفؤاد) هو ما شاع تسميته بالقلب، فالناس فى أدبياتها تخص القلب بمهام الفؤاد التى أسلفنا، وتخص العقل بالقدرات التفكيرية. وما نقلنا عن كتاب أسرار الترادف من مرادفات للعقل هى فى الواقع صفات للعقول فى أوضاعها المختلفة، ومن ثم فليست هذه الصفات العقلية أجزاء جديدة فى القلب، كأن نقول إن هناك شيئًا اسمه اللب، أو شيئًا اسمه الحجر أو شيئًا اسمه النهى.. هى كلها أوصاف للعقول العظيمة.

ونفس الشىء ينطبق على صفات القلب ككل، أو صفات النفس التى يمثل القلب جزءًا منها، فيقال: نفس مطمئنة، أو قلب مطمئن، ويقال: قلب واجف، وقلب قرير، ويقال: نفس راضية، وقلب راضٍ، ويقال: نفس تواقة، ومثلها قلب لوَّام، ويقال نفس أمَّارة بالسوء.

وكذلك عندما يتحدث القرآن عن أولى الأبصار لا يعنى بذلك أولى الأعين، وإنما يعنى ذوى الرؤية القلبية التى تضىء الظلمات، ففى غزوة بدر يقول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْى الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]

أى إنه عندما التقت الفئتان؛ رأت الفئة الكافرة المسلمين كأنهم ضِعفهم، رغم أنهم كانوا ثلثهم.. يرون ذلك رأى العين، والحقيقة غير رؤيتهم.. والعبرة هنا لأولى الأبصار؛ أى ذوى القلوب المبصرة بنور الله.. إن التكافؤ العددى ليس بعدد الرجال، ولكن بعدد الرجال المؤمنين برسالتهم، المتوكلين على ربهم، المتوجهين إليه بجهادهم.. هؤلاء الواحد منهم بعددٍ من الآخرين.

والأفئدة هى التى تهوى، وهى التى تحب وتكره، وهى التى تعشق، وهى التى تتأثر بالفنون والجمال والإبداع والإعجاز فى الكون المحيط. والأفئدة الهواء هى الأفئدة التى تشعر بفراغ عميق نتيجة صدمة أو مصيبة أو كارثة ألمّت بها. وعندما يقول الله: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ [القصص: ١٠] أى إن فؤادها يتفطر ألمًا، ويعتصر حزنًا وتشعر بفراغ رهيب.. هذا الفراغ الذى يوقف كل ملكاتها الأخرى عن العمل، فلا تكاد ترى، ولا تكاد تسمع ولا تكاد تعقل، وكأن فراغ الفؤاد يذهلها عن كل ما حولها وما بين يديها.

ويمنُّ الله على هذا الفؤاد الفارغ بالصبر فيمتلئ بعد فراغ ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ كأن الصبر سائل سحرى يملأ الأفئدة بالرضا بقضاء الله، وتعود الحواس إلى عملها، ويمارس القلب مهامه، ويفيق من الذهول الذى ألمَّ به، وهذا هو الرباط ﴿لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] فالرباط على القلوب هو الصبر الجميل والرضا بالقضاء.

والأفئدة كذلك تزيغ وتضل، فلا تثبت على حال فى توجهاتها العقيدية، والله تبارك وتعالى يقول لنبيه: ﴿وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

والإنسان تحت الضغوط والفتن ربما يركن إلى الباطل شيئًا كثيرًا أو قليلاً، والله يقول لنبيه: ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤].

ديناميكية النفس البشرية:

للنفس البشرية محركان: الجوع، والخوف.

الجوع هو الذى يدفع الإنسان لتحصيل الشهوات والتكاثر فيها ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

والخوف خوفان: خوف يحيط بالإنسان فى تحصيله للشهوات؛ مخافة عدم إدراكها أو نضوبها وضياعها، أو الصراع عليها والمزاحمة حولها، والتدافع فيها. وخوف يتعلق بالأسئلة الكبرى حول الكون المحيط، وحول الرحلة الأبدية للإنسان. وهى أسئلة فى صميم الحياة الدنيا، والإجابة عنها تمثل الجدوى من الحياة الدنيا نفسها.

إذن، فالجوع والخوف هما المحركان اللذان يدفعان بالإنسان إلى الكدح فى الحياة الدنيا التى عرفها القرآن: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

والفطرة هى مصدر الخوف الذى يدفع الإنسان للبحث عن إجابات مطمئنة للنفس عن جدوى الحياة والسعى فيها، فتتلقفه الديانات والنظريات التى تملأ الأرض، ويرشده ربه عن طريق نذير أمته ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. والإنسان لا يبحث عن الجدوى من الحياة فحسب، وإنما يبحث معها عن الأخلاق والشرائع التى تمثل الصراط المستقيم فى التعامل مع عالم الشهوات.

وإذا غفل الإنسان عن هذه الجدوى وما يستتبعها من صراط مستقيم فإن نفسه سوف يسيطر عليها الغل والشح والأثرة والبخل، وسوف ينتهى به الأمر إلى الاستهانة بارتكاب كبائر الإثم؛ من سرقة وزنًى وقتل وفساد فى الأرض.

إن فضائل الأخلاق من جودٍ وكرم وتسامح وعفو وإيثار على النفس تنبع كلها من طمأنينة وأمان نفسٍ لا يتأتى إلا بذكر الله ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

إن الجوع والخوف إذا اجتمع معهما إيمان راسخ بما أنزل الله للناس من قيم وعقائد وشرائع، إذا تم ذلك فإن هذا الجوع وهذا الخوف سيؤديان إلى إعمار الأرض وإعمار القلوب، أو قل إعمار دنيانا وإعمار آخرتنا.

الفصل الثامن

فى معنى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣ـ ١٨٥].

فى جريدة القاهرة (العدد ١٤٠ الثلاثاء ١٧ ديسمبر) قدم الأستاذ أحمد محمد عرفة رأيًا جديدًا يقول فيه: إننى أزعم أن معنى قوله - تعالى - ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هم الذين يقدرون على الصيام مع المشقة المعتادة؛ أى إنه يجوز لمن يقدر على الصيام بالمشقة المعتادة أن يفدى فى مقابل الصوم. وأزعم أن هذا الحكم باق ولم يلحقه نسخ، ولست أنسى أن تمام هذا الحكم أن الصوم خير من الفدية.

وفـى تـرجمـة القـرآن للإنجليزية قدم «مـحمـد أسد» تـفسيرًا مـخـالـفًـا لـلآيـة، خـالـف فيـه السلـف؛ حيث رأى أن الضمير فـى ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ عـائد على طعـام مسكين؛ أى إن المسافر والمريض والذين من حقهم إرجاء الصوم لأيام أُخَر إن كانوا قـادرين على إطعام مسكين أن يفعلوا ذلك حين سفرهم أو مرضهم.

والحقيقة أننى لا أميل إلى رأى الأستاذ عرفة، ولا إلى رأى أسد عليه رحمة الله . وأظن أن السلف كانوا أقرب إلى الصواب، وإن كانوا قد أربكونا ببعض ما تحدث عنه الأخ عرفة من حديث نسخ الآية أو (تأويلها). ولقد أحسن الشيخ مخلوف فى تلخيص أقوال المتقدمين، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾؛ أى: وعـلـى الـذيـن يصـومـونـه مـع الشدة والمشقـة إذا أفطروا فديـة، والوسع اسم للقدرة على الشىء على جهة السهولة. والطاقة اسم للقدرة عليه مع الشدة والمشقة. من أطاق الفعل: إذا بلغ غاية طوقه أو فرغ طوقه فيه، ولا تقول العرب أطاق الشىء إلا إذا كانت قدرته عليه فى غاية الضعف؛ بحيث يتحمل به مشقة شديدة. قال الراغب الأصفهانى: «الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشىء، ومنه: ﴿وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه لا تحملنا ما لا قدرة لنا به وفى اللغة الطاقة أقصى الغاية، وهى اسم لمقدار ما يمكن أن يفعله بمشقة. والطاقة اسم يوضع موضع المصدر وهو الإطاقة، وقيل يجوز أن

تكون الهمزة للسلب، كأنه سلب طاقته بأن كلف نفسه المجهود فسلب قدرته وطاقته عند تمامه».

فلو استطردنا مع منهج الأخ عرفة الذى يرى أن المشقة المعتادة مع الصوم يمكن استبدال طعام مسكين بها، وطبقناه على سائر العبادات التى فرضها الله على الناس، قياسًا على منهجه؛ إذن لاختفى جوهر الدين من على وجه الأرض. أما لو استطردنا مع منهج «أسد» وهو إضافة إطعام المساكين مع إرجاء الصوم للمسافر والمريض فلا نقصان للدين، ولكنه زيادة لم يقل بها أحد من قبله، والأصل فى العبادات التوقف على ما جاء فى الكتاب والسنة وما فهمه جمهور المسلمين وطبقوه من سنة عملية.

والقرآن يقول: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ولم يقل: لا يكلف الله نفسًا إلا طاقتها، ونضرب مثلاً: أمرنا الله أن نتوجه إلى البيت الحرام فى مكة فى صلواتنا، ومن ثم لابد من تحديد القبلة فى كل مكانٍ، موقعُ وقوفنا فيه متوجهين إلى الله. عملية تحديد القبلة فى طاقتنا، ولكنها ليست فى وسعنا، وهى فى طاقتنا هذه الأيام، ولم تكن من قبل كذلك ؛ إذ إن هذا التحديد عملية هندسية لابد فيها من تحديد الموقع الجغرافى الذى أقف فيه تحديدًا دقيقًا، هو تحديد الدائرة الكبرى التى تمر بالموقع وبالكعبة متمحورة حول مركز الأرض، ثم اختيار الاتجاه الأقصر بين الموقعين.. نعم هذا فى طاقتنا اليوم، ولكنه ليس فى وسعنا، وحتى لو حددنا هذا الاتجاه لمجموعة من المواقع على سطح

الأرض فانظر المشقة البالغة فى تحديد هذا الاتجاه لكل نقطة على سطح الأرض؛ ذلك لأننا لا نصلى فقط فى المساجد، وإنما نصلى فى بيوتنا وأعمالنا. وبالمناسبة البوصلة لا تعطى الاتجاه الأكيد، إنما تعطى اتجاهاً تقريبيًا يتأثر بالمغناطيسية والكهرباء المحيطة بالموقع.. فماذا قال لنا ربنا فى تحديد هذا الاتجاه ؟ قال سبحانه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤ - ١٥٠]؛ أى إنه سبحانه سمح لنا أن نتوجه فى شطرية إلى المسجد الحرام، هذه الشطرية هى تكليف بالسعة وليست تكليفًا بالطاقة.

هذا هو إذن فهمى للتكاليف الربانية، أن الله لا يكلفنا قدر طاقتنا ولكن يكلفنا قدر وسعنا؛ ومن ثم فإن فهم السلف لمعنى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ على أنها المشقة الشديدة وليست المشقة المعتادة - كما يرى أخونا عرفة - هو فهم فى إطار المنهج الذى أشرنا إليه، وهو كذلك فهم يحصر كل الأنواع، فهناك الإنسان الذى يتحمل الصيام مع مشقته المعتادة، وهناك المسافر، وهناك المريض، وهناك أيضًا الإنسان الذى يتحمل الصيام بمشقة بالغة؛ بحيث يبذل فيه أقصى طاقته ولا يقدر على عمل شىء معه، فهو مع الصوم يمتنع عن الحياة نتيجة ضعفه، وأن الصيام استهلكه تمامًا، هذا المعنى أشار إليه السلف عندما قالوا: «والطاقة اسم يوضع موضع المصدر» وهو الإطاقة، وقيل يجوز أن تكون الهمزة للسلب، كأنه سلب طاقته.. هذا الصنف من الناس يمكنه أن يفطر، وربما يكون هذا الصنف صنفين: صنفًا من الناس عاجزًا حقًّا عن أن يفعل

شيئًا مع الصيام؛ لضعفٍ عام فى جسده، وصنفًا آخر ليست عنده قدرة نفسية على الصبر على المشقة العادية، وهذا الصنف الأخير ينبغى أن يدرب نفسه على الصوم، والصومُ خير له.

وبعد، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨] ربنا لا تجعلنا ممن يشترون بآياتك ثمنًا قليلاً.

الفصل التاسع
القـرآن وأهل الكتـاب

منذ سنين وأنا أدعو الله أن يعطينى الوقت ويمنحنى الفهم لهذه القضية المركزية فى حياة المسلمين. ولقد تعلمت من التوجيه القرآنى لنبيه ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] تعلمت أن أصبر على تلاوة القرآن، والتلاوة لغة هى ترتيب الآيات المتعلقة بموضوع ما بعضها مع بعض فى تسلسل ذكى. وآفة الكثيرين أنهم يعجلون بالقرآن من قبل أن يفعلوا هذا. فالقرآن وحدةٌ كاملة، يتسق أوله مع آخره ولا يمكن أن تجد فيه اختلافاً ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وفى رمضان هذا العام عكفت على كتاب الله، وحاولت أن أرتله ترتيلاً، ولخصت ما أفاض الله به علىَّ فى هذه العناصر، وأدعو الله أن أكون قد هديت صراطًا مستقيمًا.

١- الناس أصناف ثلاثة:

١ – مؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢ – أهل كتاب: عندهم ناموس عقيدى وأخلاقى وتشريعى، من أتباع ديانات سابقة على الإسلام ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ﴾ [الحج: ١٧].

٣ – دنيويون مشركون ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

والله يقول فى شأنهم جميعًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

٢- الدفاع عن التدين عقيدة قرآنية:

من حق أى مجموعة من المؤمنين بالله أن تدافع عن تدينها وتحافظ عليه وإلا فسدت الأرض، والله يقول:

﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والله قد جعل من سنن الوجود أن يمنح أهل التدين باسمه القدرة على الدفاع عن أنفسهم وعقائدهم ﴿دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، ومن هنا كان واجبًا على دولة تسود فيها شرائع الإسلام أن تعمل على حماية التدين عقائد ومعاملات.

فى زمن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أفزعه أن يعرف أن من بين رعيته أقوامًا يتزوجون أمهاتهم وأخواتهم وهم المجوس، فأرسل إلى الحسن البصرى فقيه عصره يسأله عن الأمر، فأبرق إليه الحسن البصرى هذه البرقية التاريخية: «إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: هذا مما جرت به عقائدهم، وإنما أنت متبع ولست مبتدعًا، فالزم والسلام».

فلزم أمير المؤمنين شريعته، وانتهى إلى ما أمره به فقيه عصره، وتركهم على ما هم عليه.

٣ - ثوابت الدين واحدة فى كل رسالات السماء:

وثوابت الدين هى العقائد والقيم السلوكية، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ومصطلح «الدين» يشمل العقائد والقيم السلوكية والقوانين، ولكننا نفهم من هذه الآية أن الله تبارك وتعالى شرع لنا «من» الدين ما أوحى به لجميع أنبيائه ورسله، وهو ما عبرنا عنه بالثابت من الدين؛ العقائد والقيم السلوكية. وهذه العقائد والقيم هى «العامل المشترك» بين كل الأنبياء.. وهو ما سمى بالإسلام، فالإسلام - بالتعبير القرآنى - هو هذا القدر المشترك من العقائد والقيم السلوكية الذى وصى به الله جميع الأنبياء. صحيح أن مصطلح «الإسلام» أطلق الأمر الآن على كل الدين.. عقائد وقيمًا وقوانين، ولكن الاستخدام القرآنى له يشتمل على القدر المشترك بين جميع الأنبياء من العقائد والقيم السلوكية. ولذلك فإن أى إنسان أو مجتمع يبنى شرائعه وقوانينه فى غيبة من الإيمان بهذا القدر المشترك من العقائد والقيم ؛ أى فى غيبة الإسلام كما عرفناه، فإن هذا البنيان إلى خسران لا محالة، ولن يقبل منه فى الدنيا والآخرة.. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام «لغة» هو الخضوع الكامل لله ومن ثم الخضوع العقائدى والقيمى، إضافة إلى الالتزام التشريعى الخاص بكل مجموعة ذات شريعة ومنهاج يرتبط بالدين.

٤ - الشريعة متغيرة ولكن مقاصدها ثابتة عند كل الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٦ – ١٨].

يعلق محمد أسد على هذه الآية فيقول: إن كلمة (الأمر) تشمل أمراً بفعل شيء أو قانوناً أو وصية أو شعيرة، ثم يستطرد فيقول فى معنى ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ﴾: أى جعلناهم يدركون مقاصد كل هذه الأشياء التى احتوتها كلمة «الأمر». ويلخص فى حاشيته على الآية هذه المقاصد فى أمور ثلاثة:

(أ) التيقن من وجود الخالق، وأن الخلق كلهم عيال الله.

(ب) أن كرامة الإنسان وتحريره من كل ألوان الخوف والعقائد الفاسدة من المقاصد العظيمة.

(ج) أن عمل الإنسان من خير أو شر عائد عليه وحده.

هذه المقاصد كما رآها «أسد» مقاصد كلية، ولكنى فى دراسة سابقة حول فلسفة «وعلى الله قصد السبيل» رأيت أن هناك

مقاصد جزئية، وأن هذه المقاصد موجودة فى كتاب الله متدثرة فى جوف آية أو مكنونة فى قلب قصة، وأنه على الفكر الإسلامى أن يستحث خطاه بحثًا عن كل هذه المقاصد (انظر كتابنا: نظرات حضارية فى القصص القرآنى).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ﴾: أى جعلناك على الطريق الذى يمنحك الحياة الطيبة (وهذا معنى الشريعة) منطلقا فى ذلك من مقاصد الدين أو قصد السبيل. والشريعة لغة: الطريق الموصل إلى مورد ماء، والماء هو سر الحياة المادية، والشريعة إذن هى الطريق إلى الحياة الطيبة.

٥- الشرعة والمنهاج «جَعْلٌ ربانى» و «عمل إنسانى»:

قلنا إن الشرعة والشريعة تعنى فى اللغة الطريق إلى مورد ماء، وتستخدم فى القرآن لتصف مجموعة القوانين التى طورتها الأمة منبثقة من عقائدها وقيمها وشاملة كذلك النصوص القانونية التى جاءت وحيًا.

أما المنهاج فهو يعنى فى اللغة «الطريق المفتوح»، ويعنى فى الاصطلاح القرآنى «طريق حياة»: طريق حياة فى الاجتماع والاقتصاد والعمران والتنمية والسياسة. والمفروض أن هذا الطريق وهذه الاختيارات الحياتية تتطور مع المجتمع وتظل دائماً متناغمة مع العقائد والقيم الثابتة التى جاءت للمجتمع وحيًا عن طريق الأنبياء والرسل.

والمجتمعات تخطئ وتصيب فى محاولتها تنغيم حياتها وقوانينها مع المقاصد الكلية للدين، والتعبير القرآنى معجز فى قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

«فالجعل الربانى» هنا هو أن الله قد جعل حركة المجتمع تخضع لسنن لا تختلف ولا تتبدل، وأن المجتمعات فى حركتها مع الزمن وفى تنميتها لمنهاجها وشرائعها قد تخطئ القصد الربانى الذى جاء به الدين من لدن آدم حتى المصطفى عليهم جميعاً السلام، ومن ثم تستحدث فى شريعتها وفى منهج حياتها بدعاً تخالف القصد الربانى وتظلم نفسها بما انحرفت عن القصد الربانى، ولعل هذا معنى قوله – تعالى –: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

فمع ظلمهم لأنفسهم وعتوهم عما نهوا عنه يجدون أنفسهم فى أغلال الحياة الدنيا، وينساقون مع مفسديهم وكبرائهم، ويجعلون ذلك جزءاً من شريعتهم ومنهجهم فى الحياة، ثم يرث الأبناء الآباء.. يرثون الشريعة والمنهاج.. ويمضون به كجزء من

الدين يقيمون حياتهم عليه. وتتراكم فى المجتمع ألوان من الشرائع والمناهج، ولحكمة بالغة لم يجعل الله الناس أمة واحدة على شريعة واحدة ومنهاج واحد، وذلك ليبلوهم فيما آتاهم، ويختبرهم فيما بين أيديهم من الشرائع والمناهج ليعرضوها على مقاصد الدين وينظروا: هل هى متناغمة معها أم متعارضة؟ وكل مجموعة تختبر ما عندها على المقاصد العليا للدين وتنظر هل ما استقر فى وعائها من شريعة ومنهاج أصلح للحياة من الشرائع والمناهج الأخرى؟

إن تعدد الشرائع والمناهج يدعو الخاملين للتفكر والتدبر ورؤية النقص الذى لديهم والخير الذى عند الآخرين.. ذلك شريطة أن يسود بين الناس حب الخير والرغبة فى المعرفة الحقة والتواضع والبحث عن الحقيقة فى دياجير الظلام، أو بتعبير القرآن «استباق الخير». وفى هذا الاستباق للخيرات لابد أن يستقر فى الأفئدة أن إلى ربك الرجعى، وأن الاختلاف أمر لا يدعو إلى الشقاق والتناحر، والله وحده يعلم المصيب من المخطئ وسوف يخبرنا بهذا يوم الحساب.

٦- التفرق فى الدين هو ثمرة البغى بين ضعاف التقوى والعلم:

الجنوح إلى التفرق ظاهرة إنسانية فى أى جماعة بشرية. وقلنا إن الدين يشتمل على العقائد والقيم والشرائع والمناهج. وقد يصيب الجماعات تفرق فى العقائد أو فى القيم أو فى الشرائع أو فى المناهج. وأخطر أمراض التفرق تأتى فى العقائد

والقيم وأقلها فى الشرائع والمناهج. والتفرق غير الاختلاف، فقد نختلف فى إطار الوحدة الجامعة ولا يسعى أحدنا للتفرق والتشتيت. والاختلاف ظاهرة صحية تدعو إلى تقليب الرأى والنظر من جهات متعددة إلى المسألة من أجل الوصول إلى حل فى إطار وحدة الجماعة. أما التفرق فينشأ من أمراض القلوب التى تؤدى إلى البغى والتحاسد والكبر والاستعلاء والضغينة والأنا الطاغية المستبدة. الله يصف هذه الحالة بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

أى أن هؤلاء الذين تفرقوا فى الدين بغيًا بينهم تركوا لأتباعهم ميراثًا دينيًا يحيط به الشك المريب، وقد يدعوهم هذا إلى ترك الدين جملة، فالدين إذا شابه ما يعكر صفوه فى العقيدة أو القيم أو الشرائع والمناهج يصبح مصدر قلق للإنسان، وربما أبعده جملة عن طريق السماء.

والتفرق الإجرامى هو التفرق الذى يحدث بعد وضوح الرؤية ومجيء العلم ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤، ٥].

والقرآن فى هذه الآية يصف لنا «الدواء الوقائى» من هذا التفرق فى أربعة عناصر:

(أ) إخلاص الدين لله فى كل جوانب هذا الدين ابتداءً من الاعتقاد والسلوك وانتهاءً بالشرائع والمناهج، وذلك على مستوى الفرد والجماعة والأمة.

(ب) انصراف الوجهة عن كل باطل والتزامها بكل حق: سواء فى عالم العقائد أو فى عالم الأفكار أو فى عالم الشهوات والشرائع والمناهج (وهذا معنى الحنيفية).

(ج) إقام الصلاة.. وعملية إقامتها عملية فردية اجتماعية.. وللصلاة علامة على إقامتها، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا لم يتحقق ذلك فما أقمنا صلاة.

(د) إيتاء الزكاة، والإنفاق فى سبيل الله من أموالنا ومن قوتنا ومن كل شيء رزقنا الله إياه.

فإن فعلنا ذلك فإن هذا هو دين القيمة؛ الدين الذى يقيمنا على الجادة وعلى الطريق المستقيم الواضح، ويجمعنا فى إطار وحدة تسمح بالتعدد وتنفى التفرق.

إن مصيبة هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعاً وأحزابا.. كل حزب بما لديهم فرحون..إن مصيبتهم فى أتباعهم والذين يأتون من بعدهم.. الذين سيعتبرون ما تركه لهم أجدادهم دينًا مقدسًا.. وينقسمون إزاء هذا التراث إلى أنواع.. نوع خامل يعبد ما كان يعبد آباؤه، ونوع يفكر ويقدر ويرتاب فيما بين يديه ويبحث عن الحقيقة، وهؤلاء فى العادة قلة ضئيلة، ومن هؤلاء قلة تظل تبحث عن دين القيمة بدأب وإخلاص فيوفقها الله إليه، ومنهم

أيضًا فرقة تحسد غيرها وتدمر ما حولها من تدين عند أقوام آخرين؛ لأنها لا تطيق الريب فى عقائدها، ولا تحب أن يكون تدين غيرها أكثر صفاءً وأقرب إلى الحق منها.

١- التفرق فى جماعة المسلمين:

عاشت الأمة الإسلامية غنية بالاختلاف البناء إلا قليلاً. هذا القليل تمثل فى بعض الفرق التى بدأ خلافها خلافًا سياسيًّا، ثم تحول إلى خلاف عقيدى. وفى العصر الحديث بدأت عمليات التقريب بين هذه الفرق تأخذ فى النمو والازدهار. ولقد كان لى شرف المساهمة فى هذا السبيل، عندما التقينا فى الستينيات فى الولايات المتحدة الأمريكية بآلاف من الطلبة المسلمين فى كل أنحاء العالم، وبعضهم ينتمى إلى فرق حديثة مثل الأحمدية، وبعضهم ينتمى إلى فرق شيعية..إسماعيلية ودرزية وعلوية وزيدية وجعفرية. وعندما التقينا على قلب رجل واحد بالنسبة لآفاق العمل الإسلامى فى الولايات المتحدة سرعان ما نسينا خلافاتنا، وصلى بعضنا وراء الآخر، وساد بيننا الفكر الإسلامى الحديث ؛سواء أفرزته النخبة السنية أو أفرزته النخبة الشيعية. وفى سنوات قليلة نسينا كل خلافاتنا وسمى الشيعى ابنه عمر ورأس جمعية الطلبة المسلمين هناك ثلاثة من الشيعة العراقيين والإيرانيين والأفغان من عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٧١. ولكن للأسف الشديد عندما أزور أوروبا الآن أو الولايات المتحدة أجد تيارًا جديدًا من جماعات التفريق بين المسلمين باسم العقيدة، يكفرون الناس جميعًا. رأيت هناك من يتهم حسن البنا وسيد قطب فى عقيدته، ومن يكفر محمد

الغزالى ويوسف القرضاوى، تيار إجرامى لا أدرى من وراءه ومن يدفع له ثمن تذاكر الطائرات ويضع بين يديه الأموال يشترى بها أئمة المساجد فى هذه البلاد. وفوجئت فى مصر؛ فى القاهرة والإسكندرية ببعضً المكتبات تعرض فى واجهاتها كتباً تسب الشيخ الغزالى والشيخ القرضاوي؛ هذين المجاهدين اللذين أبليا فى سبيل الله ما يعرفه القاصى والدانى.

هذا التيار التفريقى يتفنن فى اختراع أساليب التفريق الشيطانية السافلة. أذكر أننى وجدت عند أولادى رسالة عنوانها «الرأى السديد فى أن دخول المجلس منافٍ للتوحيد»... صعقت من العنوان. ورغم أنى مختلف مع حرص بعض الحركات الإسلامية فى مصر حول الدخول فى البرلمان، إلا أن ذلك لأسباب تتعلق بالمصالح والمضار، وليس لأسباب تتصل بالعقيدة. أذكر أنى قرأت هذه الرسالة لأبحث عن الأسباب التى حولوا بها قضية خلافية حول المصالح إلى قضية عقيدية يفترق حولها المسلمون فلم أجد إلا عبثاً بآيات الله وليًّا للقرآن.

٢- علاقة الكتب المقدسة بعضها ببعض:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ

جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

جاء الإنجيل مصدقًا لما بين يديه من التوراة؛ أى مصدقًا لما بقى من حق فى التوراة. فالتوراة ربما اعتراها تحريف، أو أن تكون أحكامها أحكامًا تخص أوضاعًا خاصة وليست أوضاعًا أبدية، فيأتى الإنجيل ليصدق الجزء الثابت من الدين: العقيدة والقيم ويعفو عن الجزء المتغير، أو الجزء الذى أصابه التحريف.

وكذلك القرآن بالنسبة للإنجيل، يأتى مصدقًا لما بقى متوافقًا مع الجزء الثابت من الدين، ومهيمنًا عليه، بمعنى أنه إذا حدث اختلاف فالمرجع هو القرآن.. سواء كان هذا الاختلاف نتيجة تغير الظروف وخصوصية أحكام الإنجيل، أو كان نتيجة تحريف تراكم مع الزمن.

٣ - فى قضية الحكم بما أنزل الله بين اليهود والنصارى والمسلمين:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ

أَوْ أَعْرِضْ عَنهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤١-٤٧].

أولاً - ما الحكم بما أنزل الله؟

قلنا من قبل إن الدين يشتمل على العقائد و القيم والشرائع والمناهج. وقلنا إن العقائد والقيم واحدة عند كل الرسل، أما الشرائع والمناهج فأصولها ثابتة وفروعها متغيرة مع الزمان والمكان.

وكلمة الحكم يمكن أن تكون حكما فى اختلاف عقائدى أو قيمى أو شرائعى أو منهجى. ولذلك عندما يقول القرآن: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] يكون الأمر هنا هو حثهم على الالتزام بالجزء الثابت من الدين؛ العقائد والقيم. هذا وإلا فإن عدم الالتزام بهذه العقائد والقيم سوف يؤدى إلى شيوع الفسق فى المجتمع. فأى نظام قيمى يحتاج لنظام عقائدى من ورائه، ورحم الله الرافعى الذى كان يقول «لا ثقة لى فى متخلق لا دين له»؛ لأن الأخلاق من غير نظام عقائدى سرعان ما تتحلل وتذوب.

والدولة الإسلامية تحرص على التدين عند كل طوائفها، ومنهم المسيحيون الذين بقوا على مسيحيتهم، ولأن الإنجيل لا يحمل فى طياته تشريعًا، ومن ثم لا يملك النصارى قوانين ذات أصل عقيدى، فإنهم محكومون بقوانين الدولة ذات الأغلبية المسلمة التى يعيشون فيها. وحتى القوانين الكنسية المتعلقة بالأسرة ونظام الزواج والطلاق رغم أنها ليست واحدة عند كل فرق النصارى فإن الدولة الإسلامية تحترمها ما دام أهلها يربطونها بعقيدتهم وقيمهم، فتعظيم التدين عند كل الناس هو من الأهداف المستقرة فى الدولة الإسلامية، وهو أمر القرآن للحاكم المسلم: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ولا يستطيع حاكم مسلم فى دولة إسلامية أن يفرض على من لا يدينون بالإسلام عقائد وقيمًا مخالفة لدينهم ولا قوانين مدنية عندهم منها قوانين مخالفة.

وهذا الذى استنتجناه بشأن أهل الإنجيل طبقه المسلمون على كل أصحاب الديانات الأخرى: اليهود والمجوس والصابئة

وديانات الشرق الأقصى. وقد مر بك فى هذا الكتاب موقف عمر بن عبد العزيز من المجوس فى قوانين زواجهم وقول فقيه الأمة فى عصره له «هذا مما جرت به عقائدهم، وإنما أنت متبع ولست مبتدعًا، فالزم، والسلام».

والشرائع ينبغى أن يكون لها سلطان فى القلوب قبل أن يكون لها سلطان فى الدولة. ولو حدث انفصام بين سلطان القلوب وسلطان الدولة فستكون هذه الظاهرة هى الحالقة والحارقة للناس والدولة.

ولعل هذا من بعض معانى قوله - تعالى - ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٩٧].

والآيات التى استعرضناها من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...﴾ توضح لنا حالة من الاتحاد الإجرامى بين هؤلاء الأعراب وطائفة من أهل الكتاب من اليهود. هذه الطائفة اليهودية طائفة سماعة للكذب سماعة لهؤلاء المنافقين من الأعراب، وليس عندهم الأمانة أن يأتوا رسول الله ليفهموا ويتعلموا، ولكنهم يعلمون الأعراب ما يأخذونه وما يتركونه من كلام رسول الله. وأظن أن هذه الظاهرة موجودة بيننا الآن عندما نجد تحالفًا بين بعض أهل الكتاب ومجموعات من المنافقين والملحدين الذين يقولون آمنا بأفواههم والذين لم تؤمن قلوبهم.

والقرآن يعبر عنهم بأنهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾؛ أى أن الكذب وأكل الحرام أصبح أمرا أصيلا فيهم، وأن الداء قد

تأصل فى أعماقهم. هؤلاء المنافقون والكفرة يريدون أن يطبقوا فقط جزءًا من شريعتهم، وأن يهربوا منها إلى الشريعة الإسلامية فى بعض الأمور؛ أى أنهم يتلاعبون بالشرائع، وفى الحقيقة هم قوم كافرون. ولذلك فالأمر للرسول ولكل حاكم مسلم من بعده أن ينظر فى الأمر نظرة فاحصة، فإن كان فى شريعتهم حكم فى نفس القضية طبقه عليهم، وإن لم يكن هناك حكم فعليه أن يطبق عليهم شريعة الإسلام، وليقسط... إن الله يحب المقسطين. ويبسط القرآن جزءاً من القانون الجنائى الذى كتبه الله عليهم وينذرهم أنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

ونستنتج من ذلك أن هناك أنواعا من الخلق:

نوعًا مؤمنًا برسالة سماوية فى جزءيها العقيدى والقيمى، ولكنه لا يقيم حياته المدنية عليها... يهمل تطوير شريعته وقوانينه وقيمه... وهؤلاء هم الفاسقون.

ونوعًا ينتقى من الشرائع ما يكرس حالته من الكذب وأكل السحت... وهؤلاء هم الكافرون.

ونوعًا يؤمن بعقيدة وقيم وشريعة، ولكنه لا يطبقها... وأولئك هم الظالمون.

ونوعًا، ندعو الله أن نكون منه، يؤمنون بعقيدة الإسلام وبقيم القرآن وبقوانين القرآن ويقيمون حياتهم شريعة ومنهاجا على الهدى والنور الذى يشع من كتاب ربهم... وهؤلاء هم المؤمنون.

النجاة فى الدنيا والآخرة لمن؟

يقول الله - تعالى - : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٢-٩٤]. ويحدد معنى الإيمان فى آية أخرى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

قلنا إن الدين يشتمل على العقائد والقيم والشرائع والمناهج. الجزء الثابت فى كل رسالات الله هو العقائد والقيم، والجزء المتغير هو الشرائع والمناهج. وقلنا إن أى جماعة بشرية تجنح إلى التفرق والتقطع مع مرور الزمن إلا أن يعصمها من الله عاصم، ثم تصل هذه الرسالات للأتباع فى الأجيال اللاحقة مقطعة ممزقة. ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُم فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣].

والمسلمون ليسوا بدعا من الخلق، ورسول الله يقول ما معناه «تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستتفرق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة». والسبعة فى الاستخدام العربى يراد بها أحيانا الكثرة. والحديث يقول إن هذه الكثرة درجات... كثرة أولى لليهود وكثرة ثانية للنصارى وكثرة ثالثة للمسلمين. ونحن فى هذا البحث

لا نتعرض للطرائق التى يجب أن نتبعها فى محاولة منع هذا التفرق، ولا للطرائق التى تعيد هذا الشتات إلى بيت الوحدة، ولهذا حديث آخر بإذن الله.

والآن.. وبعد أن تقطعت الأمم إلى طوائف عدة، كل طائفة عاكفة على ما عندها، ورثته من الأجداد مقطعا ممزقا، وحسبته وتحسبه مقدسا... ولم تقم هى بالتقطيع والتمزيق... تلك أمة سابقة فرحت بالتقطيع والتمزيق، فماذا يقول القرآن فى نجاة هؤلاء الورثة؟

هؤلاء الورثة أنواع، وليسوا جميعا سواءً. الأغلبية العظمى منهم تعيش حياتها فى ظل طائفتها مؤمنة بالله الواحد وباليوم الآخر وتعمل الصالحات، ورثوا الدين عن آبائهم وقدسوه فى قلوبهم وليسوا فلاسفة ولا علماء مقارنة بين الأديان... هؤلاء يحدثنا القرآن أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وهناك طائفة قليلة من ذوى الطبائع الباحثة عن الحق فى دياجير الظلام، والتى يخفق قلبها مخافة الله وأفرغت نفسها باحثة عنه وفى طبائعها تواضع جم. هذه الطائفة الباحثة عن الحق إذا اقتنعت عقولهم واطمأنت قلوبهم إلى رسالة الإسلام الخاتمة فإنهم يسلمون. فى مثل هؤلاء يقول الله ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ

يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾

[المائدة: ٨٢-٨٥].

والقسيس لغة هو الباحث عن الحق فى دياجير الظلام، والرهبان أقوام أفرغوا عقولهم وقلوبهم من الدنيا وسقوها بحب الله. والعقائد النصرانية التى بين أيدينا تحفز الناس على مكارم الأخلاق وعلى حب الخير، والقرآن يشهد بهذا لها، بينما يحذرنا مما بقى بين أيدينا من تعاليم اليهودية... تعاليم تدعو إلى البغضاء بين الناس والعياذ بالله. ويعلق محمد أسد فى تفسيره الإنجليزى على جملة «وإذا سمعوا» أى «إذا أدركوا وفهموا». فماذا لو ارتابوا وشكوا ولم تطمئن قلوبهم للإسلام ولكنهم ظلوا على مودتهم وعلى حفاظهم على تدينهم؟ هؤلاء أيضًا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ويعلق الإمام ابن تيمية فى كتابه «تفسير ست سور» على قوله تعالى:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١ - ٣] يعلق على كلمة «منفكين» بمعنى «مدانين»، فيكون المعنى أن الإنسان لن يدان إذا لم تصله رسالة الإسلام فى صورة مطهرة محببة إلى القلب وواضحة فى عقائدها وقيمها وشريعتها ومنهجها وضوحًا يزيل الشك والريبة من قلبه، ويقطع بأن هذا هو دين القيمة. (انظر محمد أسد).

وهناك صنف ثالث من المرضى والمنافقين من أهل الكتاب هم الورثة الحقيقيون للذين قطعوا دينهم زبراً، هؤلاء فى قلوبهم غل وعصبية يكرهون مخالفيهم فى الطائفة وفى الدين عمومًا... هؤلاء يأمر الله نبيه ويأمر كل مسلم من بعده أن يكون موقفنا معهم، ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].

وفى مجتمعنا رأينا كل هذه الأصناف. رأينا أم سمعان الجارة الطيبة والصديقة الصدوق لأم حامد، وذلك عندما أحاط الموت بأم حامد فجاءتها أم سمعان تودعها، وجلست عند رأسها تقرئها كيف تترك الحياة على دينها، قولى يا أم حامد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قولى يا أم حامد: الموت حق والبعث حق والحساب حق والجنة والنار حق، قولى يا أم حامد: إنا لله وإنا إليه راجعون.

أم سمعان النصرانية تساعد أم حامد المسلمة لتدخل الجنة على عقيدة الإسلام. وكأنى بهما يفهمان أن للجنة أبواباً... بابًا يدخل منه المسلمون وبابًا يدخل منه المسيحيون. أم حامد وأم سمعان ورثتا الدين عن أبويهما وعاشتا مؤمنتين بالله واليوم الآخر وعملتا صالحًا كل حسب عقيدتها... فى أخوة سابغة وصدق صدوق.

ومن الأمثلة التى لم تقنع بما تسلمته من الأجداد مثالان: الأول هو الدكتور نظمى لوقا الذى كتب فى نهاية كتابه (محمد الرسالة والرسول): «لا خِيَرة فى الأمر. ما نطق هذا الرسول عن الهوى، لا خيرة فى الأمر. ما ضل هذا الرسول وما غوى، لا خيرة

فى الأمر. ما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين، فسلام عليه بما هدى، وسلام عليه فى الخالدين». والمثال الثانى هو الفيلسوف العظيم ليوبولد فايس النمساوى اليهودى الذى أسلمته حيرته إلى اعتناق الإسلام، وإثراء الحياة العلمية الإسلامية بما لم تثرها جامعات متخصصة كاملة. إننى رغم اختلافى معه فى بعض الأمور إلا إننى أعتبر ترجمته لمعانى القرآن الكريم أعظم عمل علمى فى القرن العشرين فى مجال الدراسات الإسلامية.

أما أمثلة المنافقين والمرضى فكثيرة، أعرف علمانيًا عربيًا خاف على أولاده من الإسلام فجعلهم يعتنقون الشيوعية فخسروا المسيحية والإسلام معا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الموالاة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا

وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٥٧ – ٦٣].

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أى جعلهم مثل القردة نتوقع منهم أى شىء، ومثل الخنازير فى حبهم للشهوات. (محمد أسد نقلاً عن المنار، وعن الطبرى، وعن التابعى مجاهد).

أولاً ما الموالاة؟ الموالاة كلمة ذات إيحاءات متعددة، منها التحالف ومنها القدوة ومنها النصرة ومنها الاطمئنان إلى الجانب. والآيات التى بين أيدينا تعدد أصنافاً من الجماعات ينبغى عدم موالاتهم وهم:

١– الذين يتخذون ديننا لهواً ولعبًا.

٢– الذين ينقمون منا أننا آمنا بربنا وما أنزل إلينا وما أنزل من قبلنا.

٣– الذين يتحالفون مع المحاربين لنا.

٤– المنافقون الذين يظهرون الموالاة والإيمان بما نؤمن به وهم قد خرجوا بالكفر كما دخلوا به علينا، والذين يشجعون مرضى القلوب من بيننا على التخاذل.

٥- الذين نتوقع منهم أى شىء مثل القردة، أو الذين لا يعرفون إلا شهواتهم كالخنازير، وذلك أنهم عبدوا الطواغيت.

٦- الذين يسارعون فى الإثم والعدوان ويأكلون السحت.

٧- الذين فقدوا القيادات الروحية، أو الذين لم يعودوا يستمعون لهذه القيادات الروحية من بينهم سواء كانوا رجالاً ربانيين أو علماء دين (الأحبار).

هذه الأصناف السبعة نهانا القرآن أن نتخذهم أولياء سواءً كانوا يهودًا أو نصارى أو منافقين مسلمين يحملون أسماءنا ويدعون أنهم على ملتنا.

وكيف أوالى من يستهزئ بعقائدى وقيمى وشريعتى ومنهاجى، أو من يوالى عدوى الذى قهرنى فى أرضى، أو أخرجنى منها، أو من انحطت أخلاقه وقيمه وأصبح من عبدة الطواغيت، أو من يشجع الضعفاء والذين فى قلوبهم مرض على الخيانة والانسلاخ من المجتمع المسلم وخاصة أثناء المواجهات الحربية، كما فعلت يهود فى المدينة فى عهد الرسول الخاتم عليه أفضل الصلاة والسلام. وكيف أوالى من يسارع فى الإثم والعدوان ومن يأكل السحت.

ولكن القرآن يقول: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] والبر والقسط هو جماع الخير كله،والموالاة جزء يسير منه، والله أعلم.

القتال المشروع فى القرآن:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٤].

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُون فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُون فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُون فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٥، ٧٦].

باختصار شديد، شُرع القتال فى الإسلام لأمرين:

- **التحرير.**
- **منع الفتنة.**

وفى مجال التحرير يأتى الرد على الاعتداء على الأرض والنفس والمال، وتحرير الشعوب من الطواغيت سواء كانوا من المحتلين أو من المستكبرين الذين يستذلون الشعوب ويقهرون الضعفاء من الرجال والنساء والولدان، ويسخرون الأمم لشهواتهم وحماقاتهم.

وفى مجال منع الفتنة يأتى منع إجبار الناس على اعتناق مالا يريدون، ومنع إجبارهم على ترك ما يؤمنون به، ومنع دفعهم بالأذى والتعذيب والقتل ليفتنوا عن عقائدهم. ومن الأذى فى هذا المجال أن يُمنع عباد الله من حرية ممارسة شعائرهم، والمسلمون مطالبون بأن يدافعوا عن حرية الآخرين فى إقامة شعائرهم حتى من الديانات الأخرى، وجعل دفع الله للمسلمين بالطغاة هدفاً أساسياً من أهداف الاجتماع الإنسانى ؛ حتى تبقى دور العبادة عامرة بروادها ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ﴾.

وذلك كله من أجل ألا تكون فتنة ويكون الدين لله ؛ أى أن يتوجه كل مخلوق إلى ربه من غير شريك طاغوتى، وبحرية تامة لا يشوبها أى إجبار، فلا إكراه فى الدين.. ومن ناحية المصطلحات فإن القتال جزء من الحرب والحرب جزء من الجهاد. القتال هو الجزء الذى يتواجه فيه الخصمان من غير خفاء، أما الحرب فهى أشمل من ذلك، ولها أساليبها الظاهرة والخفية، وقد لا يكون فيها قتال. أما الجهاد فهو عملية استعداد دائم قبل الحرب

وأثناء الحرب وبعد الحرب. وأهم ما فى الجهاد أن النية الفردية فيه على مستوى الفرد، والنية الجماعية على مستوى الأمة، والنية الرسمية على مستوى الدولة كلها فى سبيل الله وابتغاء مرضاته، وليست للعلو والإفساد فالله يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

الجزية:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

نقل محمد أسد فى ترجمته تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده لهذه الآية ونلخصه فيما يلى:

«هناك (من) الذين أوتوا الكتاب قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومن ثم فانتسابهم لأهل الكتاب انتساب كاذب، ثم تمضى الآية فتقول: ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق. فإذا كانوا لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فما معنى لا يحرمون ما حرم الله ورسوله (الرسول الذى يتبعونه)؟ الشىء المؤكد الذى أوضحناه فى هذا البحث أن القتال فى الإسلام شرعه الله كما قلنا من أجل التحرير ومنع الفتنة، ومن التحرير مقاومة الاعتداء، ومن ثم فيكون الذى لم يحرمه هؤلاء المنافقون المنتسبون زورًا لأهل الكتاب هو الاعتداء على المسلمين وعدم اتباعهم قواعد دينهم الذى يأمرهم بألا يعتدوا».

وتستطيع أن تدخل فى هؤلاء الفرنجة الذين جاءونا زورًا باسم الصليب، فهؤلاء لا يتبعون تعاليم رسولهم المسيح عليه السلام، ولا يدينون بدينه حقًا، ولأن الله أمرنا أن نقاوم كل من يعتدى على أرضنا وحرياتنا، فإن الله أمر المؤمنين أن يقاتلوا هؤلاء المنتسبين لأهل الكتاب زورًا وبهتانًا؛ حتى يخضعوا للدولة الإسلامية خضوعًا سياسيًا (وليس عقيديا) ويعطوا الجزية عن يد (أى عن سعة حسب مقدرتهم) بعد أن يخضعوا لسلطان الدولة الإسلامية. والدولة الإسلامية - ولأنها دولة عقيدية قامت لتحقق مبادئ الإسلام فى الحياة - تخير أفرادها القادرين على حمايتها من غير المسلمين بين الانضمام للجيش للدفاع عن الدولة أو بذل ضريبة دفاع تسمى الجزية؛ والمأخوذة من فعل جزأ ؛ أى دفع مقابلا لعدم رغبته فى المشاركة فى الجيش. هذه الضريبة يعفى منها كل الذين لا يطلب منهم الانضمام للجيش، وهؤلاء هم النساء، والشباب الذين لم يبلغوا سن الانضمام للجيش، وكبار السن من الرجال، والمرضى والمعوقون. وقدر هذه الجزية أقل بكثير من ضريبة الزكاة التى تفرضها الدولة الإسلامية على المسلمين. ويفسر الشيخ رشيد رضا كلمة (عن يد) بمعنى حسب القدرة المالية للشخص.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية يستطيع أى مواطن يريد إعفاء نفسه من الخدمة العسكرية أن يرفع قضية ضد الدولة يقول إن لديه «حساسية دينية» ضد الاشتراك فى حرب بعينها، والقضاء حر فى تقدير الموقف والحكم بالإيجاب أو الرفض. ولكن الأمر مكفول فى الإسلام لأهل الذمة ؛ أى أهل الحماية الكاملة بما فيها الحماية للعقائد والقيم والنسك الدينية.

موقف أهل الكتاب من بعضهم البعض وموقفهم من المسلمين:

لقد استعرضنا فى الصفحات السابقة موقف القرآن من أهل الكتاب، فماذا يقول القرآن عن موقفهم من بعضهم البعض وموقفهم منا؟ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣] فنفى اليهود للنصارى ونفى النصارى لليهود وهم أصحاب كتاب أمر لا يليق بهم، وإنما يفعله الجهلة الذين لا يعلمون. وأصحاب الديانات السماوية ينبغى أن يبحثوا عن الحق المشترك بينهم، ولا يزعم كل فريق أن الآخرين لا يملكون من الحقيقة شيئا على الإطلاق (ليسوا على شىء)، وإنما نبحث عن الجوهر المشترك ونترك ما اختلفنا فيه لله تبارك وتعالى يحكم بيننا يوم القيامة. وبالطبع ينطبق هذا القول على طوائف المسلمين وطوائف النصارى وغيرهم من أهل الكتاب. لا نطالب كل فريق أن ينخلع من عقائده، وإنما نحترم هذا الاختلاف مع إيمان كل منا بما عنده. ففى تاريخ البشرية كان هذا الاختلاف هو الوقود الذى أُضرمت به النيران لتحرق المخالفين فى العقيدة؛ ولذلك يتحدث القرآن فى الآية التالية لهذه الآية مباشرة فيقول ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُم فِى الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُم فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]. ومساجد الله

هـى كـل مـكـان يسـجـد فـيـه لله ويذكر فـيـه اسمـه. واحترام هـذه المساجد والاقتراب منها - ونحن يملؤنا الخوف من الله - هـو الجدير بـالمؤمنين بـالله رغم اختلاف توجهاتهم. أما الذين يسعون فى خراب بيوت العبادة فأولئك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. إن القرآن يقرر هذه المبادئ العظيمة لتستقر فى عقول المؤمنين، يبتغون بها وجه الله وحده ولا ينتظرون رضا أهل الكتاب عنهم فيقول ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وهـو درس للمؤمنين فى كل زمان ومكان أن يقفوا مع الحق مع كل الناس، رضـى عـنـهـم الـنـاس أو سـخـطـوا، أحـبـوهـم أو كـرهـوهـم، فـإنـه ﴿لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

وبعد، فما قدمت من تأويل لآيات من الذكر الحكيم حول القضايا الأساسية التى يثور حولها جدل بالنسبة لأهل الكتاب، ما قدمت من تأويل هو محاولة فهم اعتمدت فيها على التفسير الإنجليزى لمحمد أسد، والذى اعتمد بدوره فى كثير من الأفكار على تفسير المنار وخاصة آراء الأستاذ محمد عبده. لقد أعانتنى هذه الترجمة واختصرت لى الوقت بما قدمته من حواشٍ تلخص آراء كل المفسرين بما بسط أمامى الأمر، فأعدت ترتيب الأمور وتقليبها حتى هدانى ربى لما قدمت، وأدعوه سبحانه وتعالى أن أكون قد استقمت على صراط مستقيم.

الفصل العاشر
الاستغفار والحياة الطيبة

من أعظم العمليات التى يحرص عليها القرآن عملية الاستغفار، والتى حولها البعض إلى عملية عدٍّ ترديدية لا علاقة لها بالمفهوم القرآنى للاستغفار. وأصبحت المسبحة (وهى وسيلة للعد) هى جوهر الاستغفار، ثم اخترع لنا الصينيون عدادا إلكترونيا نستغفر به الله، اقرأ قوله تعالى:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾

[نوح: ١٠ - ١٢].

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

تقرأ هذه الآيات البينات فتتبين لك حقيقة الاستغفار:

الاستغفار الدائم هو الشرط الأساسى للحياة الطيبة؛ ومن ثَم لا يمكن أن يكون الاستغفار هو هذه العملية الروتينية التى يردد فيها الفرد كلمة الاستغفار آلاف المرات، ولا بد أن يكون من ورائها نظرية كاملة لصناعة الحياة الطيبة؛ ابتداء من استغفار الأفراد إلى استغفار الجماعات والأمم.

والاستغفار يتكون من مجموعة العناصر التالية:

١- اكتشاف الخلل فى الأداء الكلى للفرد أو للجماعة.

٢- البحث عن الأخطاء والذنوب الداخلية التى ربما كانت السبب وراء هذا الأداء الفاسد.

٣- الإقرار بهذه الأخطاء والذنوب الداخلية حسب المرجعية الإسلامية.

٤- وضع خطة لمحو آثار هذه الذنوب فى النفس والمجتمع.

٥ - السعى برفق لتنفيذ هذه الخطة (الأوابة أو الإنابة).

٦- أن نطلب من الله أن يؤتينا من لدنه رحمة، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا، وأن يهيئ لنا من أمرنا مرفقًا (الرحمة والرشد والرفق).

٧- أن نطلب من الله تبارك وتعالى أن يغفر لنا ما عملنا من أخطاء وذنوب، وأن يتجاوز عما لا نعلم منها.

وهذه الخطوة الأخيرة فى عملية الاستغفار يكتفى بها الناس عن الخطوات الست الضرورية قبلها، ويظنون أنهم استغفروا، وما هم بمستغفرين.

وكما رأيت أن عملية الاستغفار تحتوى على عملية التوبة، فلا استغفار بدون توبة، وإن شئت فاستمع لقوله - تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣] وكذلك انظر إلى هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ

عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فـ«ثم» هذه ليست للتوالى، ولكنها للتأكيد على جزئية فى الاستغفار.

والتوبة جزءان : جزء يتعلق بهمهمة النفوس ومخاوف القلوب وتحركاتها وحركة الفكر الدائبة فى النفس الإنسانية.. كل هذا تقع فيه ذنوب كثيرة متراكمة، وربما لا يدرى العبد كيف يتوب منها، وخاصة إذا لم ينسق وراءها بأفعاله... مثل هذه الذنوب يتوب الله على المؤمنين من أجلها.

انظر إلى قول الله – تعالى –: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوه فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] فالمؤمن مهما أُوتى من قدرة على المراجعة لا يستطيع أن يحصى ذنوبه، فربما كان الذنب أدق من دبيب النملة فوق الصخرة الصماء؛ ومن ثم فقد لا ينتبه المؤمن للاستغفار من هذه الذنوب الدقيقة التى لا ترى تحت المجهر الإنسانى، ولكنَّ موقفًا عظيمًا يقفه المؤمن فى ساعات العسرة يستغفر للمسلم عند ربه فيتوب عليه، وهناك لطيفة فى تكرار ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أن ذلك من باب التأكيد يقول الرازى: «إنه إذا قيل: عفا السلطان عن فلان، ثم عفا عنه دل ذلك على أن ذلك العفو مؤكد، وبلغ الغاية القصوى فى الكمال والقوة»، وهذا درس عظيم لكل المؤمنين. إن الصمود فى ساعات العسرة يستوجب توبة الله على المؤمنين من كل ما تراكم عليهم من ذنوب دقيقة خفيت عليهم. والعسرة هى ندرة الأمر وصعوبته،

روى الرازى عن جابر واصفا العسرة التى جاءت فى الآية قال (حصلت عسرة الظَّهر وعسرة الماء وعسرة الزاد أما عسرة الظهر فقال الحسن: كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير واحد يتعاقبونه بينهم، وأما عسرة الزاد فربما مَصَّ التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها حتى لا يبقى من التمرة إلا النواة، وكان معهم شيء من شعير مسوس فكان أحدهم إذا وضع اللقمة فى فيه أخذ أنفه من نتن اللقمة، وأما عسرة الماء فقال عمر: خرجنا فى قيظ شديد وأصابنا فيه عطش شديد حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه).

وإنما روينا هذا الوصف للعسرة حتى لا يظن الذين يتمرغون فى النعيم فى مدننا الحديثة آكلين شاربين محمولين أنهم فى عسرة، وأمر استحقاق التوبة من الله على الناس يحتاج إلى الصمود فى المواقف الصعبة الحقيقية، وإلا تراكمت عليهم ذنوبهم النفسية الدقيقة ولم يجدوا لها عند الله غفرانًا.

على كل حال ذلك هو الجزء الأول من التوبة.. الجزء المتعلق بحركة القلوب وسقوطها فى ذنوب دقيقة متراكمة، أما الجزء الثانى من التوبة فيتعلق بذنوب الأعمال، والتى حللناها فى النقاط الست الأولى من عملية الاستغفار. اقرأ قوله - تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

فهؤلاء الثلاثة من الصحابة تقاعسوا فى اللحاق برسول الله - ﷺ - فى غزوة تبوك فلما هموا باللحاق به - عليه السلام - لم يتيسر لهم، فلما عاد من الغزوة اعترفوا بذنوبهم وأرجأ رسول الله ﷺ البت فى أمرهم، وهجرهم مجتمع المدينة بما فى ذلك أهلهم، وظل هذا الهجر الحارق خمسين ليلة كاملة ضاقت عليهم فيها الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهى حالة من الندم حارقة يختنق فيها الإنسان بذنبه، ويشعر أنه يكبله ويحيط به حيثما ولى بصره، ولا يرى فرجة هنا أو هناك إلا أن يلجأ إلى الله وحده مستعدا أن يقدم ماله ونفسه بديلاً لهذا الذنب الذى لا يستطيع إصلاحه بعد أن انتهت الغزوة وعاد النبى.

لذلك عندما نزلت هذه الآية الكريمة وبُشّر الثلاثة بتوبة الله عليهم حتى يتوبوا ويستغفروا جاء أحدهم وهو كعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ قائلاً: توبتى إلى الله تعالى أن أخرج مالى صدقة، فقال له الرسول الكريم: «لا»، فقال كعب فنصفه. قال الرسول ﷺ: «لا»، فقال كعب فثلثه، فقال الرسول: «نعم». ومعنى ذلك أن الله - تبارك وتعالى - تاب عليهم بمعنى أنه تجاوز عن الذى غفلوا عنه من تراكم ذنوب أنفسهم؛ وذلك حتى يبدءوا التوبة التى يصححون بها خطأهم قدر إمكانهم، وهكذا فهم كعب وأصحابه معنى الآية، فلم يقولوا تاب الله علينا وانتهى الأمر، وإنما قال كعب: توبتى أن أعطى مالى صدقة، وهذا كل ما يقدر عليه حتى نهاه الرسول عن ذلك ورضى بالثلث.

وهذا درس لكل مؤمن: إن التقاعس الذى يقعد بأصحابه عن تلبية نداء الواجب إثم عظيم، هكذا فهمه هؤلاء الثلاثة، وهكذا ينبغى أن يفهمه كل المتقاعسين عن فروض العين الشاعرين بالرضا عن أنفسهم على الرغم من تقاعسهم، وهذا الشعور بالرضا فى حد ذاته إثم عظيم لا يستحق صاحبه أن يتوب الله عليه، إنما هؤلاء الذين تشتعل فى أنفسهم الحرائق سخطا على أنفسهم أنهم لم يجاهدوا مع إخوانهم، ولم يقفوا فى صفوفهم، وتركوا الثغرات مفتوحة فى هذه الصفوف ؛هؤلاء هم الذين يستحقون أن يتوب الله عليهم حتى يتوبوا.

الاستغفار للغير:

يقول الله - تعالى -: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣- ١١٤] ويقول أيضًا: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٩ - ٨٠] فالنبى والمؤمنون منهيون أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى بعدما تبين لهم أنهم هم أصحاب الأعمال والأفعال الموجبة لدخول النار، وهذا معنى أصحاب الجحيم. كما أنه لا يوجد مؤمن يشفع فى الدنيا فى حد من حدود الله، ولا يطلب من حاكم

فى الأرض أن يعطل هذه الحدود فكيف نطلبه من الله؟! ولو شاع هذا بين الناس لاستفحل أمر الكفر والعدوان، وذهب أهل كل مجرم إلى رجال مؤمنين يطلبون منهم أن يستغفروا لهؤلاء المجرمين، وهذا لا علاقة له باحتمال توبة مستقبلية عن أعمال أخرى لهؤلاء، المهم أن يعلم هؤلاء المقترفون للأعمال الجهنمية أنهم لن تُغفر لهم هذه الأعمال إلا أن يعملوا فى المستقبل أعمالا طيبة ؛ مدركين أن الحسنات يذهبن السيئات، أما الغفران بناء على الدعاء فحسب فلا ينبغى أن يدعو الله به مؤمن لنفسه أو لغيره.

وقد رأينا من قبل أن الذنوب الصغيرة التى قد لا يشعر بها المؤمن تحتاج إلى أعمال عظيمة حتى يتوب الله على فاعليها، فما بالك بمن يرتكب الكبائر ويهلك الحرث والنسل ؟ وكم يحتاج من أعمال الخير ليمحو الله سيئاته؟. وفى الآيات السابقة رأينا نموذجا من هؤلاء الذين يقفون فى وجه الدعوة إلى الله، نموذجا تجسد فى هؤلاء المنافقين الذين يلمزون هؤلاء المؤمنين الذين يتطوعون فى أعمال الخير والجهاد بأموالهم وأنفسهم، وكذلك يسخرون من فقراء المجاهدين الذين لا يجدون إلا أنفسهم يقدمونها رخيصة فى سبيل الله.

إن هؤلاء المجرمين لا يكتفون بالتقاعس والبخل بأنفسهم وأموالهم، إنما يسعون بقوة لإحباط عزائم المجاهدين، ومن هؤلاء كذلك أبو إبراهيم – عليه السلام – الذى قاتل إبراهيم وحاربه، وكان إبراهيم يطمح أن يهديه الله، وأن يتوقف عن حرب

الدعوة، ولكنه مات على الكفر، فكان أن تبرأ إبراهيم من أعماله. هذا عن الذين يقاتلون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا، ثم ماتوا على هذه الحال؛ ومن ثم لا يجوز أن يستغفر أحد لهم؛ لأن هذا الاستغفار عملية قلبها هو التوبة، وما داموا قد ماتوا ولم يتوبوا وكانت أعمالهم حتى وفاتهم حربًا واضحة معلنة ضد الخير فلا ينبغى لأحد أن يطلب من الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم، أما من ماتوا ولم يعرف عنهم أنهم كانوا أعداء لله ورسوله كهؤلاء الذين ماتوا فى الجاهلية وعاشوا حياتهم فى ظل معروف سائد ومنكر سائد فأخذوا أنفسهم بالمعروف السائد، ومن هؤلاء أقارب نبينا ﷺ الأقربون: أمه وأبوه، هؤلاء يترك أمرهم لله جل وعلا، كما أن الإنسان يمكن أن يستغفر لهما من خلال العمل الصالح يبذله فى سبيل الله، كما جاء فى الأثر «**ينقطع عمل ابن آدم إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو الله له**»، فالابن الصالح هو امتداد للعمل الصالح، ومن أشرف من رسول الله ﷺ امتدادًا لأبيه وأمه؟!

بعض عبدة النصوص يقفون عند حديث غريب المتن يقول: [قال ابن عباس رضى الله عنهما: لما فتح الله تعالى مكة سأل النبى ﷺ «أى أبويه أحدث به عهدًا؟» قيل أمك، فذهب إلى قبرها ووقف دونه ثم قعد عند رأسها وبكى فسأله عمر وقال: نهيتنا عن زيارة القبور والبكاء ثم زرت وبكيت، فقال: «**قد أذن لى فيه، فلما علمت ما هى فيه من عذاب الله وأنى لا أغنى عنها من الله شيئا بكيت رحمة لها**».

وحديث آخر يقول (يروى أن رجلا أتى الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: كان أبى فى الجاهلية يصل الرحم ويقرى الضيف ويمنح من ماله، وأين أبى؟ فقال أمات مشركا؟ قال نعم. قال: فى ضحضاح من النار، فولى الرجل يبكى فدعاه عليه الصلاة والسلام فقال: إن أبى وأباك وأبا إبراهيم فى النار، إن أباك لم يقل يوما أعوذ بالله من النار)، وإنى لأقرأ فى الآثار المروية ما يناقض هذين الأثرين.

كان أمية بن أبى الصلت من المتعبدين فى الجاهلية، لبس المسوح، وطمع فى النبوة، وأدرك الإسلام ولم يسلم، صدق شعره فى دلالته على التوحيد وكفر قلبه لأنه جحد، ولم يذعن للحق الذى جاء به الرسول ﷺ - هذا الأمية ورد حديث عن رسول الله يقول: «**آمن شعر أمية وكفر قلبه**». وفى حديث أخرجه مسلم والطبرانى فى الكبير عن الشريد بن سويد رضى الله عنه أنه قال: أردفت الرسول ﷺ فقال: هل معك شىء من شعر أمية، قلت نعم فأنشدته مائة قافية كلما أنشدته قافية قال: «هيه»، ثم قال ﷺ: «**عند الله علم أمية بن الصلت**»؛ أى أن أمية بن الصلت الذى كفر قلبه علم حاله فى الآخرة عند ربه... جنة أو نار.

أما أبو الرسول وأمه اللذان ماتا وهو طفل صغير، ولا نعرف عنهما تاريخا ولا أحوالاً تنبئ بشأنهما فى الدنيا فإن بعض الناس يصرون على إدخالهما النار من خلال الإصرار على صحة ما تقدم من آثار مروية، وعدالةُ السماء تعلمنا ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، وأهل الفترة قبل بعثة المصطفى لم يبعث

فيهم رسول، عاشوا بالقيم السائدة بدينهم والله يحاسبهم بما عرفوه وعلموه من خير أو شر، والأصل أننا سنلقى الله أفرادًا ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، ولن نحاسب جماعيا وإنما نحاسب أفرادًا، وكل فرد يحاسب بما بلغه من دين وبمدى فهمه له.

وفى الجاهلية كانت هناك قيم نبيلة يمكن أن يتمسك بها فرد ويمكن أن يهملها فرد آخر. ورسول الله عندما أكرم بنت حاتم الطائى قال: «إن أباها كان يحب مكارم الأخلاق»، وحلف الفضول كان تمثيلا جماعيا لمكارم الأخلاق.

ومن هنا فإن القول بدخول كل الذين لم يدركوا رسالة النبى الخاتم النار نظنه أمرا مخالفا لكتاب الله الذى يأمر بالقسط وإقامة الميزان. ولعلى أنبه بعض الباحثين فى تاريخ المسلمين، وخاصة فى زمان الدولة الأموية والعباسية أن يبحثوا فى صحة ما أظنه من أن بعض أحفاد أعداء الدعوة الإسلامية فى مكة والمدينة وما حولهما من أئمة الكفر ربما أرادوا أن يقولوا إن رسول الله فرد فى ذاته، وإن أمه وأباه سيدخلان النار كما سيدخل آباؤنا، وإن أفراد أسرته كأفراد أسرنا، وربما فعلوا ذلك نتيجة هذا الشعور بالدونية لآبائهم وأجدادهم فتلقفوا مثل هذه الأفكار وأثبتوها وأذاعوها، والإمام ابن قيم الجوزية يحذرنا فى كتابه الرائع «المنار المنيف فى معرفة الحديث الصحيح من الضعيف» يحذرنا من الأحاديث التى تسب بعض الصحابة أو تتعرض لبعض الأشخاص أو القوميات أو المهن، ويعتبر أن متون هذه الأحاديث تدعو لرفضها دون النظر لسندها.

ونؤكد فى نهاية هذا الحديث عن الاستغفار للغير أن الله تبارك وتعالى عندما قال: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠] قالها فى حق من مات منهم، وليس فى حق الأحياء، والذى يمثل طلب الاستغفار لهم أن يهديهم إلى التوبة، وهذا أيضا ما نقله محمد أسد عن الرازى والزمخشرى، وكذلك محمد عبده. وعلى كل حال فمذهبى فى هذا أن هذه الآية عامةٌ وكل من مات على حال هؤلاء المجرمين لن يغفر الله له هذه الذنوب، ولا يصح هنا ربط هذه الآيات بأسماء معينة كانت حية وقت نزولها، كما ادعت كثير من الروايات، وإلا وجدنا أنفسنا فى إشكال خطير يتعلق بإغلاق باب التوبة أمام إنسان ما زال حيًا.

والله – تبارك وتعالى – عندما يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فهو يدعو كل الناس إلى أن يبدءوا التوبة؛ فالغفران مشروط بها وهى جزء لا يتجزأ منه، كما أن المؤمن عندما يستغفر لإنسان آخر، إنما يطلب من الله أن يهديه إلى التوبة، ويجوز أن يطلب إنسان الغفران لأهله الذين سبقوه بالإيمان دون تحديد لأسماء معينة فإبراهيم استغفر لوالديه، والوالدان هما سلسلة طويلة من النساء والرجال فيهم من يستحق الغفران، وفيهم من لا يستحق الغفران، كما كان حال أبيه والإنسان يفعل ذلك بالاجتهاد فى العمل الصالح، وكأن هذا العمل الصالح من ثمرات عمل الصالحين ممن سبقونا.

١- الاستغفار المؤسسى:

كنا من قبل نتحدث عن الاستغفار الفردى، وفى هذه العجالة نتحدث عن الاستغفار المؤسسى؛ استغفار النظم والمؤسسات والسياسات العامة. وكنا قد كتبنا من قبل، انظر كتابنا: دراسة قرآنية فى فقه التجدد الحضارى) أن القرآن يركز على العقائد والقيم والموازين، ويشرح العبادات ويعطى توجيهات كلية للعقائد، ولكنه لا يعطى تفاصيل دقيقة لكل عمل ينبغى أن يعمله الإنسان أو تعمله الجماعة أو تقوم به الدولة، إن ذلك من شأن الجماعة المسلمة فى سعيها الحياتى بالعشى والإبكار. ومن ثم فلا بد أن تكون هناك وسيلة لتقييم الأعمال وتصحيحها من وقت لآخر ؛حتى نتأكد أن المسار ما زال متناغما مع عالم الغيب.

إن القرآن يجعل ذلك فرض عين على الجماعة المسلمة فيقول - سبحانه وتعالى -: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فكل توجه تنموى أو اجتماعى أو سياسى ينبغى أن يكون فى قمة العاملين فيه طائفة متخصصة ؛ تقوم أولاً بتحديد أهداف هذا العمل التنموى أو الاجتماعى أو السياسى، وتربط هذه الأهداف بالأهداف الربانية للإنسان المسلم والمجتمع المسلم. فلو كان الأمر اقتصاديا مثلا ينبغى أن تتحقق هذه الطائفة المتخصصة من أن هذا النشاط الاقتصادى ليس فيه إثم على أصحابه، وأنه

يزيد فى خير المجتمع، وأن هذا النشاط لا يظلم أحدًا، وأنه لا يشيع فاحشة فى المجتمع. كذلك ينبغى أن ينظروا فيما تتطلبه التوجهات القرآنية من تشريعات حول الأمر محل الاجتهاد، ويضعوا ذلك بين يدى إخوانهم الفنيين التنفيذيين صناع النظم، وبالطبع هؤلاء الفنيون التنفيذيون هم أنفسهم أصحاب رغبة حقيقية فى تنفيذ شرع الله، ولكن انشغالهم ببناء النظم لن يسمح لهم بوقت لمعايشة الأفكار الكريمة واتساقها مع أهداف المجتمع المتمثلة فى عقائده ومجموع قيمه.

إننى أسأل أحيانا من الذى يضع أهداف العملية التعليمية فى مصر؟ هل هى وزارة التعليم المصرية؟ بالطبع لا، فوزارة التعليم مجموعة من الفنيين المشغولين ليل نهار بالعملية التعليمية، وليس عندهم وقت للتفكير والتأمل فيما ينبغى أن تكون عليه فلسفة التعليم. إن غياب هذه المجموعات العليا التى تستطيع أن تنجو بنفسها فى مكان قصى تتأمل وتتدبر فى فلسفة التعليم واتجاهاته الكونية ونسب العلوم إلى بعض، والهدف التنموى من العملية التعليمية، وإعطاء بعض الاجتهادات المختلفة لتكون بين يدى صانعى القرار، يختارون منها المناسب للواقع الذى يعرفونه بحكم قربهم منه.. إن غياب مثل هذه المجموعات يجعل كثيرا من جهدنا ضائعًا، فتعليمنا لا يزيد من انتمائنا، وتعليمنا لا يخدم العمليات التنموية عندنا، وخريجنا المجتهد المتميز بعد أن يبذل قصارى جهده ربع قرن

من الزمان يجد نفسه فى الشارع، لا يجد عملا حقيقيا يخدم به نفسه أو يخدم به أمته، كل ذلك ينشأ، وينشأ مثله فى كل القطاعات نتيجة لغياب منظومات الفقه الحضارى التى أمرنا الله بإنشائها فى كل مجالات الحياة... فمن كل فرقة طائفة... من كل فرقة فنية وتنفيذية طائفة؛ طائفة مهمتها تحديد أهداف العمل، ثم مراجعته فى ضوء العقائد والقيم ؛ هذه الطائفة هى جهازنا الاستغفارى المؤسسى.

وفى الغرب توجد هذه الفرق الاستغفارية تراجع كل الأعمال من خلال مرجعية غير ثابتة... مرجعية المصلحة المادية والنفع المادى فحسب، ولذلك فهم يدركون نجاحات فى المدى القريب، ولكن تغيب عنهم المراجعة فى ظل قيم ربانية، وهم خير منا لأنهم على الأقل يستغفرون حسب ما ارتضوه من مرجعية عامة، أما نحن فلا نستغفر، وليست عندنا نظم أوابة. ننشئ نظامنا التعليمى ولا نقيس مخرجاته، فتتفاقم أخطاؤه حتى نهلك، ننشئ نظاما سياسيا ونتركه يتعفن حتى نهلك، ننشئ نظاما تنمويا وننساه حتى نزهق.

وفى كل هذه الأحوال فإننا قوم غير مستغفرين على مستوى الأفراد ومستوى الجماعات ومستوى الحكومات.. نختار لأنفسنا رئاسات وزعماء وننسى أنهم يدركهم الدهر وينتكسون فى خلقهم كلما طال بهم الزمن، ونظل نشقى بهم حتى يدركنا ويدركهم الأجل المحتوم. قلت فى وصفى للنظام الاستغفارى إنه لا بد من قياس الزيغ بين الأهداف المرجوة حسب مرجعيتى التى

ارتضيتها وبين الواقع، أى قياس الفرق بين الواقع والمأمول ثم محاولة تقليل هذا الفارق بطرق أوابة، ولكن مشكلتنا الجوهرية أننا لا نقيس شيئا، ولا نعرف كيف نستحدث طرائق للقياس لأحوالنا التنموية والاجتماعية والسياسية؛ ولذلك لا نفيق إلا بحدوث الكوارث، وياليتنا نفيق حتى مع الكوارث. هذه الأيام تحيط بنا الكوارث من كل جانب ونقرأ لمثقفى الأمة فى صحافتها بهتانا يبعدك عن قياس حالك بطريقة صحيحة، وإنما يأخذك بعيدا عن القياس الراشد إلى رؤية تزيدنا تخبطًا.

وبعد.. نعود فنقول إن الاستغفار هو الطريق للحياة الطيبة.. اللهم ارزقنا القدرة على الاستغفار.. أفرادا وجماعات وحكومات.. إنك أنت الغفور الرحيم.

قبول التوبة:

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ويقول: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

ويقول : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤] والمراد من الذين يعملون السوء

بجهالة هؤلاء الذين يفعلونه عن إهمال أو غفلة أو عجلة أو قلة علم بالعواقب، أو ضعف شديد مع ظروف مواتية للسوء، مثل الإغواء الشديد بالجنس والمال والجاه مع وجود الحاجة الماسة لها أو قل قلة الوسع الإيمانى مع شدة التكليف. ثم إن هذا المذنب يتوب من قريب؛ أى لا يدع الأمور تتفاقم، وإنما يتراجع فى أقرب وقت قبل أن تحدث الكوارث ويقع فى المصائب أو يوقع الآخرين فيها.

والمراد من هذا كله أن الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب سوف تقبل توبتهم، أما الذين يؤجلون التوبة حتى تحدث الكوارث ويتوفاهم ربهم على هذه الحال هؤلاء لن تقبل توبتهم، وحالهم كحال الذين يموتون وهم كفار... هؤلاء وأولئك لهم عذاب أليم، وقد قلنا إن من عناصر التوبة التعرف على الذنب، ومحاولة محوه بكل ما يستطيع الإنسان من عزم وقوة، فماذا لو كان الذنب عظيما بحيث لا يمكن للمذنب أن يمحوه؟ ماذا لو كان الذنب قرارا سياسيا لمجموعة من الحكام وكان من نتائجه ضياع أمة وهلاك شعب أو محو قرى ومدن من على ظهر الأرض؟! هل يمكن أن يقبل الله التوبة من الذين خططوا ونفذوا وأشعلوا الحروب العالمية والذين ألقوا القنابل الذرية على اليابان؟ هل يمكن أن يقبل الله التوبة من المثقفين الخونة الذين يضلون شعوبهم ويسعون فى إبعادهم عن دينهم وذلك لحساب قوى استعمارية؟

وماذا عن الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]؟ وكأن هذه الآية تتحدث عن الذين يسرفون على أنفسهم فيسببون لأنفسهم أضرارا يمكن أن يتجاوزوها، أما هؤلاء الذين يسببون أضرارا لمجتمع كامل؛ أضرارا هم غير قادرين على إصلاحها.. أحسب هؤلاء لا يقعدون فى مظلة الآية الكريمة التى تبشر بقبول التوبة عن الذنوب ؛ لأن هذه الذنوب لا تتعلق بالإسراف على النفس، ولكنها تتعلق بالإسراف على المجتمع وعلى الأمم. والله أعلم.

الفصل الحادى عشر
جوانب من منهج الأستاذ الإمام محمد عبده فى التفسير

قلت فى بعض كتاباتى إن كثيرًا من المفسرين سجنوا القرآن الكريم فى زنازن مختلفة: زنزانة التفسير بالمأثور، وزنزانة الناسخ والمنسوخ وزنزانة المعارف الكونية فى عصرهم.

ولذلك رأيت أن أراجع منهج الأستاذ الإمام من خلال موقفه من هذه القضايا، وسيرى القارئ أن الإمام كان موفقًا للغاية فى كل هذه المواقف، ولم تَزِلَّ قدمه كما زلَّت أقدام كثيرة فى القديم والحديث.

وفى هذه الورقة نقلت آراءه كما جاءت فى المنار فى هذه القضايا الثلاث باختيار مجموعة من الآيات القرآنية تظهر منهجه فى التفسير بطريقة جلية. وكذلك أضفت رأيًا لتلميذه محمد أسد حول قضية النسخ ورأيًا جديدًا لى حول نفس القضية.

موقف المنار من تفسير الآيات الكونية:

مثال : «خلق السماء وتسويتها وخلق الأرض ودحوها» مثل ذلك تأويله للآية ٢٩ من سورة البقرة ﴿هُوَ الَّذى خَلَقَ لَكُم مَّا فى الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شىء عَلِيمٌ﴾، والآيات من ١ – ٦ من سورة الشمس ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١)

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾، والآيتين ١١، ١٢ من سورة فصلت ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

– ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذا هو نص الدليل القطعى على القاعدة المعروفة عند الفقهاء أن الأصل فى الأشياء المخلوقة الإباحة، أى إباحة الانتفاع بها أكلا وشربا ولباسا وتداويا وركوبا وزينة. وبهذا التفصيل تدخل الأشياء التى يضر استعمالها فى بعض الأشياء وينفع فى بعض، كالسموم التى يضر أكلها وشربها وينفع التداوى بها.

– ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال الراغب استوى إلى بمعنى اقتضى الانتهاء إلى الشىء إما بالذات وإما بالتدبير، والمراد أن إرادته توجهت إلى مادة السماء ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِى دُخَانٌ﴾ ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، أى فأتم خلقهن من تلك المادة الدخانية فجعلهن سبع سماوات تامات منتظمات الخلق. وهذا الترتيب يوافق ما كان معروفا عند اليهود عن سيدنا موسى – عليه السلام – أن الله – تعالى – خلق الأرض أولا، ثم خلق السماوات والنور، ولا مانع من الأخذ بظاهر الآية فإن الخلق غير التسوية، أفلا ترى أن الإنسان فى طور النطفة والعلقة يكون مخلوقا ولكنه لا يكون بشرًا سويًا فى أحسن تقويم كما يكون عند إنشائه خلقًا

آخر؟ وسنبين عند تفسير قوله – تعالى – : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] أن العالم كان شيئا واحدا ثم فصله الله – تعالى – بالخلق تفصيلا وقدره تقديرا، فلا مانع أن يكون خلق الأرض وما فيها سابقًا على تسوية السماء سبعا. وربما يتوهم أن هذه الآية تناقض أو تخالف قول الله – تعالى – بعد ذكر خلق السماء وأنوارها ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] والجواب عنه بوجهين:

أحدهما: أن البعدية ليست بعدية الزمان ولكنها البعدية فى الذكر، وهى معروفة فى كلام العرب وغيرهم، فأنت تقول أحسنت إلى فلان بكذا وبعد ذلك ساعدته فى عمل كذا، كما تقول وزيادة على ذلك ساعدته فى كذا، تريد نوعا آخر من أنواع الإحسان من غير ملاحظة التأخر فى الزمان.

وثانيهما: أن الذى كان بعد خلق السماء هو دحو الأرض أى جعلها ممهدة مدحوة قابلة للسكنى والاستعمار لا بمجرد خلقها وتقدير أقواتها فيها، وخلق الله وتقديره لم ينقطع من الأرض ولا ينقطع منها ما دامت وكذلك يقال على غيرها.

ثم يذكر الإمام حديثا عن معنى الدحو لغة وينتهى إلى القول: إن الله – تعالى – قد دحا الأرض عندما فتقها هى والسماوات من المادة الدخانية التى كانت رتقا وفيه دلالة أو إشارة على الأقل على أنها كرة أو كالكرة فى الاستدارة، ولا يبعد أن يكون المراد بدحوها ودحرجتها حركتها بقدرته تعالى فى فلكها

﴿وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وهذا لا ينافى ما قيل من أن معناه بسطها أى وسعها ومد فيها وأنه سطحها أى جعل لها سطحا واسعا يعيش عليها ناس وغيرهم، فمن جعل مسألة كرويتها وسطحها أمرين متعارضين يقول بكل منهما قوم يطعنون فى الآخرين فقد ضيقوا فى اللغة والدين واسعًا بقلة بضاعتهم فيهما معًا.

وحاصل القول أن الله - تعالى - خلق هذه الأرض وهذه السماوات التى فوقنا بالتدرج وما أشهدنا خلقهن، وإنما ذكر لنا ما ذكره للاستدلال على قدرته وحكمته وللامتنان علينا بنعمته، لا لبيان تاريخ تكوينها بالترتيب؛ لأن هذا ليس من مقاصد الدين، فابتداء الخلق غير معروف ولا ترتيبه إلا أن تسوية السماء سبع سماوات تظهر بعد تكوين الأرض، ويظهر أن السماء كانت موجودة إلا أنها لم تكن سبعا، ولذلك ذكر الاستواء إليها وقال ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فنؤمن بأنه فعل ذلك لحكمة يعلمها، وقد عرض علينا ذلك لنتدبر ونتفكر، فمن أراد أن يزداد علما فليطلب من البحث فى الكون وعليه بدراسة ما كتب الباحثون فيه من قبل، وما اكتشف المكتشفون من شئونه وليأخذ من ذلك بما قام عليه الدليل الصحيح لا بما يتخرص به المتخرصون ويخترعونه من الأوهام والظنون وجهة أن الكتاب أرشده إلى ذلك وأباحه له.

هذه الإباحة للنظر والبحث فى الكون بل هذا الإرشاد عليها بالصيغ التى تبعث الهمم وتشوق النفوس لكون كل ما فى الأرض مخلوقا لنا محبوسا على منافعنا هذا ما امتاز به الإسلام فى

ترقية الإنسان، فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين أن أهل الكتاب كانوا متفقين فى تقاليدهم وسيرتهم العلمية على أن العقل والدين ضدان لا يجتمعان، والعلم والدين خصمان لا يتفقان وأن جميع ما سينتجه العقل – خارجًا عن نص الكتاب – فهو باطل.

إن الدحو فى أصل اللغة دحرجة الأشياء القابلة للدحرجة كالجرز والكرسى والحصا ورميها، ويسمون المطر الداحى لأنه يدحو الحصى.

من هذا نستخلص أن منهج الأستاذ الإمام فى تفسير الآيات الكونية:

١- تفسير الألفاظ ومدلولاتها اللغوية (الاستواء / الدحو / الخلق).

٢- فهم الأسلوب من الثابت من كلام العرب (البعدية الذِّكرية وليس البعدية الزمنية فى قوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾.

٣- عدم الانتصار لنظرية سائدة وإنما تصاغ الأمور بطريقة ظنية.

٤- التوجيه بأن هذه الآيات الكونية إنما ذكرت فى القرآن لتوجيه العباد أن يتوجهوا ببحوثهم لمعرفة أسرار الكون التى بين أيديهم وليس للرجم بالغيب فى أمور لم نشهدها ولم يطلعنا ربنا عليها وليست فائدة للعباد.

٥- بل إن الأستاذ الإمام قدم لومًا للفخر الرازى بأنه زاد المسلمين صارفا جديدا عن القرآن وذلك بما أورده فى تفسيره (أى الرازى) من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها

من العلوم الحادثة فى الملة على ما كانت عليه فى عهده، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقد قلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن.

٦- ولعلى أضيف على شرح الأستاذ الإمام بيانا لمعنى التسوية. فالقرآن يتحدث عن الخلق ثم التسوية ثم التقدير الهادى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١ - ٣] ويتحدث أيضًا عن الإنسان فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧].

فالتسوية تعنى أن الله خلق الأشياء ومنحها من الصفات والقدرات ما تستطيع به تأدية وظيفتها المقدرة لها، وأنه هداها للقيام بهذه الوظائف، فكل مخلوقات الله قد هُديت لوظائفها المقدرة لها فى الحياة. وهديت بمعنى أن جاءها من الله هدى يشرح لها الطريق المستقيم.

والإنسان والجن - دون خلق الله جميعًا - قادرون على أن يتبعوا هذا الهدى أو يرفضوه، أما بقية الخلق فيأتونه طائعين. ولذلك زود الله الإنسان بخاصية القدرة على التفكير وحرية الاختيار، وهذا معنى التعديل فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦- ٨].

فالتعديل بالنسبة للإنسان هو الهدى مع الاختيار، أى يهديه إلى الطريق ويترك له حرية الاختيار: أن يمضى فيه أو يمضى فى غيره.

٧- ولعلنا نوجه الانتباه لأمر هام يتعلق بتفسير آيات خلق السماوات والأرض وقضية الزمن والبعدية والقبلية. فهذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات وخلق الأرض وتسوية السماء ودحو الأرض، وهى أمور نعيش فيها: فتعلونا سماء نراها، ونمشى فى أرض نحن جزء منها. والسماء فوقنا مستوية فى أدائها، وكل كواكبها ونجومها تمضى فى أفلاكها سابحة آناء الليل وأطراف النهار فى دقة متناهية نعرف منها أوقاتنا، ثم إنها مستوية فى علاقتها بنا بشموسها وأقمارها، فنحن نحيا من حرارتها المنضبطة بدقة متناهية مع كوكبنا، لو زادت لهلكنا ولو قلت لهلكنا. ومن تسوية السماء أن حباها الله بخاصية الجاذبية، حيث يجذب كل عضو فيها الأعضاء الأخرى، فتتخلق بذلك مدارات ثابتة لكل عنصر حول الآخر. فالحركة والجاذبية هما اللتان تمسكان بالمجموعة السماوية أن تقع على بعضها البعض.

هذا هو الاستواء الذى يؤثر فينا ونراه. أما الاستواء الكامل الذى تتحدث عنه الآيات فلا ندركه، وهو غيب بالنسبة لنا فى ظل معارفنا الحالية.

وأما دحو الأرض فنحن نعرفه، فالأرض جسم كروى يدور حول نفسه كما يتحرك كله فى الفضاء فى مداره، أى إن الأرض

تتدحرج فى مدارها، وهو أمر ندركه من تعاقب الليل والنهار (الدوران حول النفس) وتعاقب الفصول (الدوران حول الشمس).

موقف الإمام محمد عبده من التفسير بالمأثور:

قال صاحب المنار: (إنما يفهم القرآن ويتفقه فيه من كان نصب عينيه ووجهة قلبه فى تلاوته فى الصلاة وغير الصلاة ما بينه الله تعالى من موضوع تنزيله وفائدة ترتيله وحكمة تدبره من علم ونور وهدى ورحمة وموعظة وعبرة وخشوع وخشية، وسنن فى العالم مطردة، فترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به بقدر الاستطاعة، فإنه كما قال «هدى للمتقين» ولقد كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب فى التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية والهداية السامية. فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو ونكت المعانى ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين واستنباطات الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يصد عن القرآن بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات. وقد زاد الفخر الرازى صارفا آخر عن القرآن بما أورده فى تفسيره من علوم عصره فى الفلك والنبات والحيوان.

نعم إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن: فنون العربية لا بد منها كقواعد النحو والمعانى، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه كل ذلك يعين على فهم القرآن.

وأما الروايات المأثورة عن النبى ﷺ وأصحابه وعلماء التابعين فى التفسير فمنها ما هو ضرورى أيضًا؛ لأن ما صح من المرفوع لا يقدم عليه فى شىء، ويليه ما صح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعانى اللغوية أو عمل عصرهم، الصحيح من هذا أو ذاك قليل.

وأكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمى أهل الكتاب كما قال الحافظ ابن كثير، وجل ذلك فى قصص الرسل مع أقوامهم وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم، وفى تاريخ غيرهم كأصحاب أهل الكهف ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل وعوج بن عنق، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها، وجل ذلك خرافات ومفتريات صدقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة[1]، ولذلك قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازى. وكان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة كبعض كتب الحديث، وبيان قيمة أسانيدها ثم يذكر فى التفسير ما يصح منها بدون سند، كما يذكر أهل الحديث فى كتب الفقه، لكن يعزى إلى مخرجه كما نفعل فى تفسيرنا هذا.

وبعد استطراد مع موقف ابن تيمية فى نفس الموضوع يقول صاحب المنار: (وقد علم أن بعض علماء الصحابة رووا عن أهل الكتاب، حتى عن كعب الأحبار الذى روى البخارى عن معاوية

(١) هذا كلام الإمام محمد عبده، ولعل مراده: الصحابة الذين أسلموا من أهل الكتاب، ونقلوا إلى المرويات بعض ما فى تراثهم القديم من أساطير وخرافات.

أنه قال «إنا كنا لنبلو عليه الكذب» ومنهم أبو هريرة وابن عباس، ومن الصحابة من روى عن بعض التابعين الذين رووا عن أهل الكتاب. فالحق أن كل ما لا يعلم إلا بالنقل عن المعصوم من أخبار الغيب الماضى أو المستقبل وأمثاله لا يقبل فى إثباته إلا الحديث المرفوع إلى النبى ﷺ وهذه قاعدة الإمام ابن جرير التى يصرح بها كثيرًا).

ثم يقرر صاحب المنار (أن أكثر ما روى فى التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات، التى لا قيمة لها لا سندا ولا موضوعا).

موقف صاحب المنار من قضية الناسخ والمنسوخ فى القرآن:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

لخص الأستاذ الإمام موقف من قبله فى النسخ بأمرين:

أحدهما: بمعنى التبديل، أى إذا جعلنا آية بدلا من آية فإننا نجعل هذا البدل خيرا من المبدل عنه أو مثله على الأقل فالآية عند هؤلاء فى نسخ التلاوة. وقالوا إن المراد بالنسيان هو أن يأمر الله تعالى بعدم تلاوة الآية فتنسى بالمرة. والحقيقة أن هذا أيضا بمعنى التبديل، فما هى الفائدة فى عطفه عليه بأو، وهل هو إلا تكرار يجل كلام الله عنه!.

وثانيهما: أن المراد نسخ حكم الآية وهو عام يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة، وقالوا فى توجيهه: إنه لا معنى لنسخ آية فى ذاتها ولا حاجة إليه، وإنما الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، فإذا شرع حكم فى وقت لشدة الحاجة إليه ثم زالت الحاجة فى وقت آخر فمن الحكمة أن ينسخ الحكم ويبدل بما يوافق الوقت الآخر فيكون خيرا من الأول أو مثله فى فائدته من حيث قيام المصلحة به. وقالوا إن المراد بالإنساء إزالة الآية من ذاكرة النبى ﷺ، واختلفوا أيكون هذا الإنساء قبل التبليغ أم بعده؟ حتى إن السيوطى روى فى أسباب النزول أن الآية كانت تتنزل على النبى ﷺ فينساها نهارا فحزن لذلك فنزلت الآية. قال الأستاذ الإمام: ولا شك عندى فى أن هذه الرواية مكذوبة، وأن مثل هذا النسيان محال على الأنبياء لأنهم معصومون فى التبليغ والآيات فى القرآن ناطقة بذلك ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقد قال المحدثون الأصوليون: إن من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليا كان أو نقليا لأصول الاعتقاد وهذه المسألة منها فإن هذا النسيان ينافى العصمة فى التبليغ المجمع عليها.

ثم يقول الأستاذ الإمام: هذا تقرير ما جرى عليه المفسرون فى الآيات وإذا وازنا بين سياق آية ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ﴾ وآية ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا

﴿آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١] نجد أن آية النسخ ختمت بقوله – تعالى –: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ﴾ والثانية بقوله – تعالى – : ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]، ونحن نعلم شدة العناية فى أسلوب القرآن بمراعاة هذه المناسبات. فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء فى الآية الثانية يقتضى أن يراد بالآيات فيها آيات الأحكام.

وأما ذكر القدرة والتقرير بها فى آية النسخ فلا يناسب موضوع الأحكام ونسخها وإنما يناسب هنا ذكر العلم والحكمة، فلو قال : (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) لكان لنا أن نقول إنه أراد نسخ آيات الأحكام لما اقتضته الحكمة من انتهاء الزمن أو الحال التى كانت فيها تلك الأحكام موافقة للمصلحة.

وقد تحير العلماء فى فهم الإنساء على الوجه الذى ذكره حتى قال بعضهم إن معنى (ننسها) نتركها على ما هى عليه من غير نسخ، وأنت ترى أن هذا – وإن صح لغة – لا يلتئم مع تفسيرهم؛ إذ لا معنى للإتيان بخير منها مع تركها على حالها غير منسوخة.

قال الإمام: والمعنى الصحيح الذى يلتئم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هى ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم، أى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ نقيمها دليلا على نبوة نبى من

الأنبياء أى نزيلها ونترك تأييد نبى آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها، فإننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف فى الملك نأتى بخير منها فى قوة الإقناع وإثبات النبوة أو مثلها فى ذلك.

ومن كان هذا شأنه فى قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه. والآية فى أصل اللغة هى الدليل والحجة والعلاقة على صحة الشىء وسميت جمل القرآن آيات لأنها بإعجازها حجج على صدق النبى ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحى من الله عز وجل، من قبيل تسمية الخاص بالعام.

- رأى العلامة محمد أسد (تلميذ الإمام) محمد عبده فى آية النسخ:

يرى العلامة محمد أسد أن الآية التى جاءت فى آية النسخ هو الرسالة (The Message) وعلى هذا تكون رسالة كل نبى تنسخ ما قبلها أو تكون مثلها، وهو يرفض الرأى القائل إن كلمة آية فى آية النسخ تتعلق بالأحكام، ويشير إلى رأى أبى مسلم الأصفهانى الذى ذكره الفخر الرازى فى تعليقه على قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] حيث يحتج أبو مسلم بهذه الآية على أنه لا يوجد نسخ فى القرآن؛ لأن النسخ إبطال، فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه.

رأى جديد فى آية النسخ:

إن «آيات الله» تملأ الآفاق من حولنا وتحيط بنا فى أنفسنا وفى مجتمعنا وفى الكون المحيط بنا.

ولكننا فى كثير من الأحيان لا نراها، والله يقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

وعلى مستوى الأفراد فإن كل رسول آية فى نفسه، فمن مثل الرسول الخاتم ﷺ فى العالمين؟! وأذكر ما قاله صادق الرافعى فيهتز قلبى، يقول رحمه الله: «وشف سحابى عن جلال رائع يضطرب القلب له، أذكر فى روعة السحاب الذى كان ينزل فيه ملك الوحى، ليست فى نفسها آية ولكن الآية فيها».

فهذه المنح الإلهية فى الأفراد هى أقرب آيات إلينا نراها رأى العين، وبعضها يبقى خالدا بما يترك وراءه من آثار وبعضها تمحوه ذاكرة الزمن، وتظل القدرة الإلهية طليقة فى تسوية آيات جديدة نسخًا مثلها أو خيرا منها على مستوى الكون كله. فإن اختفت سلالات من الخلائق فلقد جاءت سلالات جديدة مثل القديمة أو خيرا منها فقول الله - تعالى -: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ﴾ هو سنة إلهية من سنن الله فى خلقه، وهى مطردة فى الحياة إلى قيام الساعة.

ولا علاقة لهذه السنة الكونية بجمل القرآن الكريم لأن القرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أما الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ فنحن نذهب مع صاحب المنار أن المراد هنا بالآيات آيات الأحكام، وهى كما ذكر بحق تتعلق بظروف معينة إن توافرت صدق الحكم بها. وفى آيات الخمر مثال واضح على التدرج بالمجتمع، بدءًا من الإيحاء بأنها ليست رزقًا حسنًا ومرورًا بمنع المسلم أن يصلى وهو فى حالة سكر وانتهاء بالتحريم الكامل. وهذه المراحل ينبغى أن تحترم فى عمليات الإصلاح فى أى مجتمع إلى أن تقوم الساعة.

مثال لآية من سنن الاجتماع الإنسانى حيث يطغى الترف على الناس ويهملون أسباب تنميتهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ(١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ(١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ(١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥– ١٩].

فآية هنا – كما يقول الشيخ مخلوف – علامة دالة على قدرته – تعالى – وإحسانه ووجوب شكره، أو دالة على أن من بطر النعمة ولم يقم بحق شكرها سلبه الله إياها وبدله بها بؤسا وشقاء، فليتعظ بذلك من كفر بالله وغمط نعمه.

وهذه الآية مطردة فى الحياة قد نراها فى زماننا أو نسمع بها تحل قرب ديارنا، وهى نسخ متكررة بعضها من بعض، وقبل هذه

الآية تتكرر مع كل مجتمع يصيبه الترف، نسخ متكررة فى ميلاد الأمم وفنائها.

وفى القرآن أيضًا الآيات الكونية المتكررة آناء الليل وأطراف النهار، مثل قوله – تعالى –: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شىء فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢] فهذه آيات متكررة منتظمة فى وقوعها، فكل ليل ونهار ينسخان الليل والنهار اللذين كانا فى موعدهما من عام مضى بطريقة متكررة.

والقرآن يصور لنا هذه الآيات سواء أكانت فى الكون أم فى الاجتماع الإنسانى أم فى النفس البشرية تصويرا دقيقا أحيانا وتصويرا عاما أحيانا أخرى، ومن ثم فهناك ما يسميه القرآن آيات محكمات وهناك الآيات المتشابهات. فالآيات المحكمات جاءتنا واصفة النفس البشرية فى تقلباتها والمجتمعات فى قيامها وموتها وأسباب ذلك كله فى السلوك الإنسانى حتى نتعظ ولا نسلك طريق الظالمين المترفين. أما الآيات المتشابهات فهى كل ما يتعلق بالغيب سواء أكان غيبًا فى الماضى أم فى الحاضر أم فى المستقبل، حيث أمرنا القرآن أن نتعامل معه بقدر عموميته من غير اختراعات وتفصيلات وهمية له.

ومن الآيات المتشابهات هذه الآيات الكونية التى يشير إليها القرآن، ولا ندرك لها فى عصرنا تفسيرا، وكأن هذه الإشارة حافز لنا أن نبحث ونجد فى البحث، لعل الله يرزقنا الحكمة من وراء هذه الآيات فى عصر مقبل، إننى أقف مذهولاً أمام القدرة التى

منحها الله لسليمان، يفهم بها منطق الطير، ويتخاطب فيها مع النمل ومع مخلوقات عجيبة من خلق الله، ولو كنت فى زمن الصحابة لوقفت أمام هذه الآية العجيبة غير مدرك لها، ومفوضًا أمرها إلى المنحة الإلهية لسليمان.

ولكن الإنسانية اليوم فى القرن الحادى والعشرين، وما آتاه الله لسليمان حظٌ أدركت بعضه الإنسانية من خلال الصبر فى البحث والتحصيل، وبدأنا ندرك بعض منطق الطير والحشرات. وكأن الآية المتشابهة فى أزمنة الصحابة أوحت لنا أن نجدَّ ونجتهد لندرك بعض الحكمة وراءها، وحتى تصبح محكمة يومًا ما ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

والإنسان تحيط به الآيات من كل جانب، ولا يستطيع أن يحتفظ فى وعاء الذاكرة بهذا الكم الهائل من الذكريات، فيشاء الله - تبارك وتعالى - أن تعمل سنة النسيان عملها لتجعل بعض الجديد يذهب ببعض القديم، أو قل: إن بعض الآيات الجديدة تنسى بعض الآيات القديمة، ولولا سنة النسيان هذه لحمل الإنسان فى صدره أطنانًا من المعلومات، ولما استطاع أن يخرج من هذا الكم الهائل بفائدة ترتجى أو حكمة تستنبط، ولذلك قال الله لنبيه الخاتم: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

فالنسيان مشيئة إلهية، وآلية عظيمة تدفع بالقديم الذى نسخ بجديد، بعيدًا عن المزاحمة فى الوعاء المحدود للإنسان والمجتمع.

والله أعلم...

الخاتمــة
آية تحدد آفاق التنمية

فى كتاب الله آية ترسم للفرد والجماعة معالم منهج تنموى للفلاح فى الدنيا والآخرة، يقول الله - تعالى -: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ويقول أهل العلم: العفو هو ما زاد عن الحاجة وارتضته النفس.

ولك أن تتصور الإنسان وهو بين الأخذ والعطاء، وانظر إلى أحوال العباد؛ فهناك من يأخذ أكثر مما يعطى، وهناك من يعطى أكثر مما يأخذ، وهناك من يأخذ قدر ما يعطى. والعفو الذى أشارت إليه الآية الكريمة ترك القرآنُ تحديده لإرادة الفرد الإيمانية، فمن أراد الفردوس الأعلى - مثل سيدنا محمد ﷺ - فعليه أن يجعل حاجته من الدنيا كفافا، بينما يعطى كل ما زاد عن هذا الكفاف فى سبيل الله؛ من أجل خير المجتمع. أما الذين يستهدفون فى الآخرة القيعان المظلمة فى قاع الجحيم فهم هؤلاء الذين لا يعطون المجتمع شيئا، بينما يسرقون كل ما يقدرون عليه ليُمتعوا به أنفسهم وأبناءهم فى الحياة الدنيا.. يسرقون جهد الناس وعرقهم ويجمعونه فى بطونهم نارًا وسعيرًا.

وشتان بين مجتمعين: مجتمع يكثر فيه من يستهدفون الجنة فى الآخرة ويعطون أكثر مما يأخذون.. هذا مجتمع تنمو الحياة

فيه كريمة عزيزة، ومجتمع يكثر فيه مَن يستهدفون جهنم فى الآخرة ويأخذون أكثر مما يعطون.. هذا مجتمع سرعان ما تنهار نظمه التنموية ويهوى إلى قاع فى الدنيا وقاع فى الآخرة.

والإنفاق فى الآية الكريمة هو كل ما يجعل المجتمع أكثر أمنا فى كل جوانبه الحياتية: اقتصادية واجتماعية وسياسية...

ودعوة القرآن عامة: كل من يريد السباق إلى الجنة عليه أن يحدد الموقع الذى يستهدفه، وعليه أن يحدد حجم إنفاقه بالنسبة لحجم ما يتمتع به فى الحياة. والأماكن فى الجنة فسيحة، والأماكن فى النار - أيضًا - فسيحة جدا لأهل الجحيم.

الفهرس

سلسلة «فى التنوير الإسلامى»

١ـ الصحوة الإسلامية فى عيون غربية.	د. محمد عمارة
٢ـ الغرب والإسلام.	د. محمد عمارة
٣ـ أبو حيان التوحيدى.	د. محمد عمارة
٤ـ دراسة قرآنية فى فقه التجدد الحضارى.	د. سيد دسوقى
٥ـ ابن رشد بين الغرب والإسلام.	د. محمد عمارة
٦ـ الانتماء الثقافى.	د. محمد عمارة
٧ـ تنصير العالم.	د. زينب عبد العزيز
٨ـ التعددية.. الرؤية الإسلامية والتحديات.	د. محمد عمارة
٩ـ صراع القيم بين الغرب والإسلام.	د. محمد عمارة
١٠ـ د. يوسف القرضاوى: المدرسة الفكرية والمشروع الفكرى.	د. محمد عمارة
١١ـ تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم.	د. سيد دسوقى
١٢ـ عندما دخلت مصر فى دين الله.	د. محمد عمارة
١٣ـ الحركات الإسلامية رؤية نقدية.	د. محمد عمارة
١٤ـ المنهاج العقلى.	د. محمد عمارة
١٥ـ النموذج الثقافى.	د. محمد عمارة
١٦ـ منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق.	د. صلاح الصاوى
١٧ـ تجديد الدنيا بتجديد الدين.	د. محمد عمارة
١٨ـ الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة.	د. محمد عمارة
١٩ـ نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم.	د. محمد عمارة
٢٠ـ التقدم والإصلاح بالتنوير الغربى أم بالتجديد.	د. محمد عمارة
٢١ـ فكر حركة الاستنارة.. وتناقضاته.	د. عبد الوهاب المسيرى
٢٢ـ حرية التعبير فى الغرب من سلمان رشدى إلى روجيه جارودى.	د. شريف عبد العظيم
٢٣ـ إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين.	د. محمد عمارة
٢٤ـ الحضارات العالمية تدافع!.. أم صراع؟	د. محمد عمارة
٢٥ـ التنمية الاجتماعية بالغرب!.. أم بالإسلام؟	د. عادل حسين
٢٦ـ الحملة الفرنسية فى الميزان.	د. محمد عمارة
٢٧ـ الإسلام فى عيون غربية.. «دراسات سويسرية».	ترجمة / أ. ثابت عيد
٢٨ـ الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة.. أم تفتيت واختراق؟	د. محمد عمارة
٢٩ـ ميراث المرأة وقضية المساواة.	د. صلاح الدين سلطان
٣٠ـ نفقة المرأة وقضية المساواة.	د. صلاح الدين سلطان
٣١ـ الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية.	د. محمد خاتمى

٣٢ـ مخاطر العولمة على الهوية الثقافية.	د. محمد عمارة
٣٣ـ الغناء والموسيقى حلال أم حرام؟	د. محمد عمارة
٣٤ـ صورة العرب فى أمريكا.	ترجمة وتعليق/ أ. ثابت عيد
٣٥ـ هل المسلمون أمة واحدة؟	د. د عمارة
٣٦ـ السنة والبدعة.	تقديم وتحقيق/ د. محمد عمارة
٣٧ـ الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان.	تقديم وتحقيق/ د. محمد عمارة
٣٨ـ قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى.	د. عبد الوهاب المسيرى
٣٩ـ مركسة الإسلام.	أ. منصور أبو شافعى
٤٠ـ الإسلام كما نؤمن به.. ضوابط وملامح.	د. يوسف القرضاوى
٤١ـ صورة الإسلام فى التراث الغربى.	ترجمة/ أ. ثابت عيد
٤٢ـ تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة.	د. محمد عمارة
٤٣ـ القدس بين اليهودية والإسلام.	د. محمد عمارة
٤٤ـ مأزق المسيحية والعلمانية فى أوربا (شهادة ألمانية)	تقديم وتعليق/ د. محمد عمارة
٤٥ـ الآثار التربوية للعبادات فى الروح والأخلاق.	د. صلاح الدين سلطان
٤٦ـ الآثار التربوية للعبادات فى العقل والجسد.	د. صلاح الدين سلطان
٤٧ـ السنة النبوية والمعرفة الإنسانية.	د. محمد عمارة
٤٨ـ نظرات حضارية فى القصص القرآنى.	د. سيد دسوقى
٤٩ـ الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين.	د. محمد عمارة
٥٠ـ الإعلان الإسلامى لحقوق الإنسان.	تقديم/ د. محمد سليم العوا
٥١ـ عن القرآن الكريم.	الشيخ/ أمين الخولى
٥٢ـ فى فقه الأقليات المسلمة.	د. طه جابر علوان
٥٣ـ مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية.	د. محمد عمارة
٥٤ـ مركسة التاريخ.	أ. منصور أبو شافعى
٥٥ـ نقل الأعضاء فى ضوء الشريعة والقانون.	مستشار/ طارق البشرى
٥٦ـ السنة التشريعية وغير التشريعية.	محمد الفاضل بن عاشور
	الشيخ/ على الخفيف
	د. محمد سليم العوا
	د. محمد عمارة
٥٧ـ شبهات حول الإسلام.	د. محمد عمارة
٥٨ـ نحو طبٍّ نفسى إسلامى.	د. وائل أبو هندى
٥٩ـ واقعنا بين العالمانية وتصادم الحضارات.	عطية فتحى الويشى
٦٠ـ بناء المفاهيم الإسلامية.	د. سيف الدين عبد الفتاح
٦١ـ المستقبل الاجتماعى للأمة الإسلامية.	د. محمد عمارة
٦٢ـ شبهات حول القرآن الكريم.	د. محمد عمارة

العنوان	المؤلف
٦٣ـ أزمة العقل العربى.	د. فؤاد زكريا د. محمد عمارة
٦٤ـ فى التحرير الإسلامى للمرأة.	د. محمد عمارة
٦٥ـ روح الحضارة الإسلامية.	الشيخ/ محمد الفاضل بن عاشور تعليق وتقديم/ د. محمد عمارة
٦٦ـ الغرب والإسلام افتراءات لها تاريخ.	د. محمد عمارة
٦٧ـ السماحة الإسلامية.	د. محمد عمارة
٦٨ـ الشيخ عبد الرحمن الكواكبى هل كان علمانيًّا؟!	د. محمد عمارة
٦٩ـ صِلَة الإسلام بإصلاح المسيحية.	الشيخ/ أمين الخولى تقديم/ الإمام الأكبر الشيخ/ محمد مصطفى المراغى تمهيد/ د. محمد عمارة
٧٠ـ بين التجديد والتحديث.	د. سيف الدين عبد الفتاح تقديم/ د. محمد عمارة
٧١ـ الوقف الإسلامى والتنمية المستقلة.	د. إبراهيم البيومى غانم تقديم/ د. محمد عمارة
٧٢ـ الرسالة القرآنية والتفسير الحضارى للقرآن الكريم.	د. سيد دسوقى حسن

